الشَيخ محمَّد بن الحَبِيب البُوزَيدِي

﴿سيدي حمُّو الشيخ﴾



كتبه

درويش العلاوي

النسخة الثانية

أحباب الشيخ أحمد العلاوي

2025

الشَيخ محمَّد بن الحَبِيب البُوزَيدِي

﴿ سيدي حمُّو الشيخ ﴾



كتبه

درويش العلاوي

أحباب الشيخ أحمد العلاوي

النسخة الثانية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اصطفى من عباده أولياء عارفين, وجعلهم مصابيح الهدى في دياجير الغفلة, والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين, سيدنا محمَّد, وعلى آله وأصحابه والتابعين.

في سجلات التاريخ الروحي, تتلألأ أسماء الأقطاب والأولياء الذين أضاءوا دروب السالكين وأناروا بصائر العباد. ومن بين هؤلاء العمالقة, يبرز اسم الشيخ محمد البوزيدي, رضي الله عنه, كشخصية فذة جمعت بين عمق المعرفة الباطنية, وسعة الرحمة, وقوة التأثير, ليُحدث نهضة روحية غير مسبوقة في زمنه.

لقد تشكلت معالم شخصية الشيخ البوزيدي منذ شبابه المبكر, حيث لازمته الابتلاءات والمحن, لتكون جزءاً لا يتجزأ من مسيرته الروحية. نشأ في كنف العارفين, وتلقى الفيض والعلم على يد شيخه المربي, سيدي محمد بن قدور الدرقاوي الشاذلي, رضي الله عنه, الذي كان له الأثر البالغ في صقل روحه وتوجيه خطاه في طريق الله. هذه التربية العميقة أسست لبصيرة نافذة وحكمة متفردة ستميز دعوته لاحقاً. فبعد محنة التهديد بالقتل بزاوية شيخه, رحل الشيخ البوزيدي عنها تاركا ورائه أثار نعمة شيخه في الفتوحات والفيوضات الربانية متجها إلى بلده الجزائر, وشاءت الأقدار, قبل ذلك, أن يمكث سنين قليلة بقرية وردانة ويستأنف تعليمه وتذكيره, فتزوج فيها وهناك لُقِّب بـ "سيدي حمُّو الشيخ".

ثم جاء الإذن الرباني بالعودة إلى مستغانم التي كانت تزخر بالصلاح والعلم. هناك, مرَّ الشيخ البوزيدي بفترة من الصمت القسري بإذن نبوي, عانى خلالها من حِدَّة الشوق إلى تذكير الخلق بالله, إلا أنه أذعن للأمر الإلهي, كتم سره, واقتصر على تعليم القرآن للصغار, في إشارة إلى عمق توكله وطاعته وإعداده لمرحلة أعظم. ثم جاء الإذن الرباني بالظهور مجدداً, حيث تجلى مقامه الأسمى في لقاء تاريخي مع الشيخ محمد ظافر المدني الصفاقسي, رضي الله عنه. بكلمة واحدة عميقة, كشف الشيخ البوزيدي عن سر باطني أذهل الشيخ المدني, الذي سرعان ما أدرك أن أمامه "إمام عصره وواحد زمانه", معلناً للناس كرم مقام هذا

العزيز الخفي. هذا الكشف لم يكن مجرد اعتراف, بل كان بمثابة إذن إلهي لبزوغ نجم الشيخ البوزيدي من جديد.

تميز منهج الشيخ البوزيدي بالفتح القريب الذي ظهر على تلامذته. فقد اختصر الشيخ الطريق الشاق إلى الله, وجعلها قائمة على الانتساب الصادق والمحبة الخالصة, مما أتاح لمريديه الجدد, الذين لم يمتلكوا في البداية سوى المحبة, أن يصلوا إلى مقامات روحية عظيمة في أيام معدودات. كان الشيخ يكرر أن الفتح والنفحة الكلية في آخر الزمان حصراً في طريقته ومن تلامذته, مجيباً من استبعد الفتح في زمنهم بأن ذلك الفتح متعذر فقط على من لم يصحب طريقه, مؤكداً على أن قوته الروحية قادرة على تحويل أي إنسان, مهما كانت حالته, إلى عارف بالله ببركة صحبته.

ولم تقتصر خصوصيته على الجانب الروحي فحسب, بل امتدت لتشمل بعداً إنسانياً فريداً. فقد كان الشيخ البوزيدي طبيب الأرواح والأجساد, يعالج الأمراض المستعصية بقوة باطنية. والأكثر إذهالاً هو سلوكه الدعوي الاستثنائي؛ حيث كان يقتحم الأماكن الصعبة بروح الرحمة لا الاستنكار, ويُقدم الهداية للنفوس الضالة بكلمة طيبة, مؤمناً بأن الفضل الأكبر يكمن في إنقاذ أهل المعصية من النار, حتى أنه شجع مريديه على الزواج من التائبات منهن, ليتمم بذلك إعادتهن إلى طريق الصلاح والمجتمع.

توجت جهوده بانضمام قبائل وعروش كاملة إلى الطريقة, فغدت الطريقة البوزيدية منارة روحية جامعة لا مفرقة. وامتد أثر نوره بفضل جهود تلاميذه إلى بلاد الشام, ليثبت أن صدق القلوب يتجاوز المسافات والحواجز الجغرافية.

هذا الكتاب يروي سيرة هذا الولي العارف, مستلهماً من شذرات حياته ومواقفه, ليُقدم للقارئ نموذجاً فريداً من الدعاة والمربين الذين جمعوا بين عمق المعرفة الباطنية, وقوة التأثير الروحي, والرحمة الشاملة بالخلق, مبرهناً أن نور الله لا ينقطع, وأن أبواب الفتح مفتوحة لمن صدق في السير إليه.

كتبه محب الأولياء والصالحين

درويش العلاوي, غفر الله له ولطف به.

تمَّ الاعتماد على المصادر التالية:

1. برهان الخصوصية في الطريقة البوزيدية (الشيخ أحمد العلاوي)
2. كتاب إتحاف ذوي النهي والبصائر بتراجم الشيخ العلاوي وشيوخه وبعض خلفائه الأكابر (الشيخ عبد ربه البوزيدي)
3. الأنوار القدسية الساطعة على الحضرة البوزيدية (الشيخ دحَّاح البوزيدي)
4. المواد الغيثة الناشئة عن الحكم الغوثية (الشيخ أحمد العلاوي)
5. شهادات بعض الفقراء البوزيدية

تنبيه: عزيزي القارئ. لست متخصصا في منهج التأريخ, ولكن بفضل الله, قمت بما لم يقم به أهل الاختصاص. كنت أود أن أكتب سيناريو عن الشيخ البوزيدي رضي الله عنه, لإنتاج فديو جديد حول سيرته العطرة, فوجدت نفسي حينها أتمادى في سيرته إلى وصلت إلى النتيجة التي بين يديك.

﴿ الفصل الأول: الولادة والنشأة: 1824م / 1239هـ ﴾

النسب الشريف

أقول, هو الشيخ الأكبر, والكبريت الأحمر, خامل الذكر, عظيم الفكر, الزاهد الناسك, الشريف الأصيل, الخلوق النبيل, المحمَّدي الربَّاني, الشاذلي طريقة, المالكي مذهبا, المستغانمي دارا ومنشأ, العارف بالله والدال عليه, سيدي محمَّد بن الحبيب البوزيدي, المعروف بسيدي حمُّو الشيخ.

كان رضي الله عنه, كامل الخلقة, علو الهمَّة, عظيم الذات. طويل القامة, عريض الصدر, عظيم الذات, حَسَن الصفات, هشوشا بشوشا, البشر دائم على وجهه, قلَّما تجده كظيما, حريصا على نفع المريد. جمع بين الهيبة والجمال الخَلقي, وبين اللين والود والأخلاق الحسنة في تعامله مع الناس, وكل ذلك مُسخر لخدمة مريديه.

ينحدر من أسرة كريمة وشريفة, وهي سمة أضافت إلى مكانته الروحية والاجتماعية بعدًا عظيمًا, فاحترام أهل البيت وتقديرهم جزء لا يتجزأ من عقيد أهل السنة والجماعة. لكنه لم يعتمد على نسبه الشريف ليبلغ مقام الرجال في الصلاح والعلم والولاية.

فهو: محمَّد بن الحبيب بن عبد الله بن أحمد بن زيدان بن الصغير بن الجيلالي بن عبّو بن عبد الله بن أحمد بن أمحمَّد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد المالك بن إبراهيم بن عامر بن عثمان بن إسحاق بن علي بن بوزيد الغوث (دفين آفلو وإليه ينسب لقب العائلة البوزيدية) بن علي بن موسى علي بن المهدي بن صفوان بن يسار بن موسى بن عيسى بن مولاي إدريس الأصغر بن مولاي إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي أبي طالب وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمَّد نبي الله ورسوله ﷺ.

وُلد محمَّد البوزيدي سنة 1824 ميلادية, 1239 هجرية, في جنوب مدينة مستغانم, وتحديدًا في قرية البساتين المعروفة باسم "دبدابة", وبالضبط في جنان "تكارلي", في بيئة شبه ريفية, غالبًا ما تكون هادئة ومُناسبة للتفكر والتأمل, بعيدًة عن صخب المدن الكبرى.

التكوين العلمي

نشأ في بيت علمٍ وصلاح والذي شكل الأسس الأولى لشخصيته الروحية والعلمية, في كنف والده السيّد الحبيب, الذي كان من العلماء والعارفين بالله, فتلقى على يده أولى مبادئ العلم. البيئة الأسرية تلعب دورًا حاسمًا في تكوين شخصية الأفراد, فنشأة الشيخ البوزيدي في "بيت علم وصلاح" توحي بأنه تلقى تربية دينية صحيحة منذ صغره, وتغذى على القيم الروحية والأخلاقية. فوالده, السيد الحبيب, كان من العلماء والعارفين بالله, فترعرع محمد البوزيدي في ظل قدوة عملية حية, كان أول مُعلم له, وغرس فيه الأسس الأولى للمعرفة الشرعية والروحية.

هذه البداية المتينة في بيت علم وصلاح غالبًا ما تُثمر شخصيات فذة في المستقبل. هذه النشأة المُحكمة كانت الأساس الذي بنى عليه الشيخ حياته الروحية والعلمية ليُصبح فيما بعد أحد أعلام التصوف البارزين في عصره.

ثم انتقل بعد ذلك إلى قرية "بوقيراط" أو (قيراط) في ضواحي مستغانم, حيث واصل طريقه في طلب العلم على يد العارف بالله الشيخ الشارف بن تكوك (طكوك). فتتلمذ في تلك المرحلة بزاويته, حيث حفظ القرآن ونهل من علومه, والفقه والحديث, وبدأت ملامح نور الولاية تظهر على وجهه الشريف. هذه الخطوة تُبرز همته العالية في تحصيل العلم والمعرفة الروحية, فهو لم يكتفِ بما تعلمه في بيته, بل سعى للمزيد, ولقائه مع الشيخ العارف بالله, الشارف ابن تكوك, كان له تأثير عميق في حياته.

الشيخ محمَّد الشارف بن تكوك الإدريسي الحسني, فهو من مواليد 1804 ميلادي, 1219 هـجري, وتوفي سنة 1892 ميلادي, 1310 هجري, فهو أحد العلماء العارفين بالله, ومؤسس زاوية بن تكوك السنوسية. تتلمذ على يد الإمام سيدي محمَّد أبي قندوز, أحد كبار شيوخ الطريقة القادرية. ثم هاجر إلى فاس بالمغرب لإتمام طلبه للعلم, ثم عاد إلى بلدته وأسَّس زاويته عام 1859 ميلادي, 1275 هجري, مأذوناً ميموناً.

تُشكل هذه المرحلة من حياة الشيخ البوزيدي على يد والده ثم الشيخ الشارف بن تكوك منعطفًا هامًا في مسيرته, حيث تعمق في العلوم الشرعية, وتجلت أولى أنوار الولاية فيه, مُتأثرًا بمنهج والده وشيخه الذين جمعا بين الشريعة والحقيقة.

الابتلاء التمهيدي ومحنة السجن

وخلال هذه الفترة, كان محمَّد البوزيدي يزور أهله من حين إلى آخر, وفِي إحدى تلك الزيارات, ما لبث أن ابتُلي, كما يُبتلى المقرَّبون, حيث رافق والده إلى سوق المدينة, مما يعكس بره بوالده وحرصه على صحبته حتى في الأمور اليومية, فوقع ضحية اتهام ظالم من قِبل جيش الاحتلال الفرنسي, والذي اعتقله بتهمة التجسُّس, بدعوى أنه ينقل الأخبار إلى رجال المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري. وكانت هذه التهمة ناتجة عن وشاية من أحد العملاء المتعاونين مع الجيش الفرنسي. وقضى محمَّد البوزيدي أيامًا في السجن, تعرّض خلالها للتعذيب والتنكير, رغم حداثة سنّه, إذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره.

فواجه الشيخ محمد البوزيدي بذلك ابتلاءً عظيمًا في مقتبل شبابه, حيث تعرض للاعتقال والسجن. هذه المحنة, التي بدأت بزيارة بريئة لعائلته, أسفرت عن اتهام ظالم في سوق المدينة وسجن قاسٍ.

هذا الاتهام كان ناتجًا عن وشاية من أحد العملاء, مما يُبرز مدى استغلال الاحتلال الأهالي ضعفاء الأنفس لقمع أي نفوذ روحي أو اجتماعي يُمكن أن يدعم المقاومة. والواشي هو في "المعنى" بداية ظهور النواة الأولى من الحاسدين والناقمين على الشيخ البوزيدي.

قضى الشيخ البوزيدي أيامًا عصيبة في السجن, لم تكن مجرد فترة احتجاز, بل كانت تجربة قاسية تعرض خلالها للتعذيب والتنكيل. وبالرغم من حداثة سنه, لم يُذكر أن الشيخ انكسر أو اعترف بما نُسب إليه زورًا. هذا الصمود في وجه التعذيب في ريعان شبابه يُعد دليلاً واضحًا على قوة إيمانه وثبات قلبه ويقينه العظيم, ويُشير إلى أن "نور الولاية" الذي بدأت ملامحه تظهر عليه لم يكن مجرد وصف, بل كان حقيقة تجلت في ثباته وصبره تحت أقصى درجات الضغط.

حادثة الاعتقال والسجن تُؤكد على أن الابتلاءات هي سنة إلهية في حق المقربين من الله. فالشيخ البوزيدي, كغيره من الصالحين, لم يُعفَ من مواجهة الشدائد والظلم. هذه المحنة لم تُضعف من عزيمته, بل كانت بمثابة اختبار رفعه الله به درجات, وأضافت إلى سيرته العطرة بعدًا آخر من الجهاد والصمود في سبيل الحق.

﴿ الفصل الثاني: في رحاب شيخ التربية: 1844م/ 1260هـ ﴾

الرحيل الاضطراري

ثم أُفرج عن محمَّد البوزيدي بعد تدَّخل أحد أخواله (بن يخُّو), الذي أدرك خطورة بقائه في المدينة, ونصحه بمغادرتها على الفور, خشية عليه من أن يُقتل ظلمًا ودون جرم حقيقي. فاستجاب محمَّد البوزيدي للنصيحة, وغادر المدينة سنة 1844 ميلادي, 1260 هجري. وشاء الله أن يكون الغرب قبلة وجهته حتى وصل إلى تلمسان, وهكذا يكون قد قطع 208 كيلومتر مشيا على الأقدام قد استغرق في سيره 3 إلى 5 أيام.

هذا التدخل من أحد أخواله يُشير إلى مكانة عائلة الشيخ وتأثيرها فتمكنت من التخلص من قسوة السجن, حيث مضى الشيخ فترة وجيزة نسبيًا فيه. أدرك خاله خطورة بقائه في المدينة ونصحه بمغادرتها. هذا التحذير يُبرز استمرار الخطر الذي كان يُحدق بالشيخ, وواقع العنف والظلم الذي كان يُمارسه الاحتلال بحق الجزائريين, لا سيما من يُشتبه في صلتهم بالمقاومة أو من لهم نفوذ روحي. فاستجاب محمد البوزيدي للنصيحة وغادر المدينة وشاءت إرادة الله أن تكون قبلة وجهته تلمسان.

في ذلك الوقت, كانت تلمسان ولا تزال مركزًا تاريخيًا وحضاريًا ودينيًا عظيمًا في المغرب العربي, ومهدًا للعديد من العلماء والأولياء. كونها "قبلة وجهته" يُوحي بأن الشيخ كان يسعى إلى ملجأ آمن لمواصلة طريقه الروحي والعلمي, وربما كان يتطلع إلى التعرف على شيوخ آخرين فيها. كل حدث في حياة الشيخ كان بتدبير إلهي, وهذه الرحلة الشاقة كانت جزءًا من طريقته نحو الكمال.

تُمثل هذه المرحلة من حياة الشيخ محمد البوزيدي نقطة تحول هامة, حيث اضطرته ظروف الاحتلال والوشاية إلى مغادرة مسقط رأسه بعد تجربة السجن القاسية. هذه الرحلة الطويلة سيرًا على الأقدام نحو تلمسان لم تكن مجرد هروب من الخطر, بل كانت بداية فصل جديد في مسيرته الروحية, تُعزز من صبره وتجرده, وتُمهد له للقاءات وعلم جديد.

التوجيه الربَّاني

فقصد محمَّد البوزيدي ضريح الولي الصالح الغوث سيدي أبو مدين شعيب الأندلسي بمنطقة العبَّاد, حيث قضى ليلته متعبّدًا, متأملًا, يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم. وفي تلك الليلة, رأى في منامه الشيخ أبو مدين برفقة جدِه الأكبر, الغوث الشيخ أبو زيد بن علي, فسلّم عليه الشيخ أبو مدين. اجتمع غوثان ليرشدا وَلَديهِما الروحي والطيني على قبلة وجهته, حيث يكمن هناك كنز حقيقته, ويبشراه بالحفظ والسلامة, وبالإشارة بالفتح والإمامة.

ثم خاطبه الشيخ أبو مدين قائلاً: "اذهب إلى المغرب, فقد سرّحتك", لكن محمَّد البوزيدي تردّد, وقال له: "إن المغرب كثير السموم والحيات, ولا أطيق السكن فيه". فمدّ الشيخ أبو مدين يده المباركة, ومسح بها جسده, وقال له مطمئنًا: "اذهب ولا تخف, فإنك محفوظ بإذن الله".

وهكذا بعد رحلته الشاقة إلى تلمسان, شهد الشيخ محمد البوزيدي ليلة محورية في حياته الروحية, حيث تلقى توجيهًا إلهيًا عبر رؤيا صادقة, حددت مسار رحلته القادمة نحو المغرب. وصل محمد البوزيدي إلى منطقة العبَّاد, حيث قصد ضريح الولي الصالح الغوث سيدي أبو مدين شعيب الأندلسي, ولعلمه أنَّ زيارة أضرحة الصالحين هي للتبرك وطلب المدد الإلهي. فقضى ليلته هناك متعبدًا, متأملًا, يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم, ما يُظهر عمق حالته الروحية واستغراقه في العبادة والتفكر. في تلك الليلة المباركة, رأى في منامه الشيخ أبو مدين بصحبة جدِه الأكبر, الغوث الشيخ أبو زيد بن علي. هذا اجتماع مبارك لغوثين من أكابر الأولياء في رؤيا واحدة, حيث يُعد أبو زيد بن علي جدًا للشيخ البوزيدي ومنارة صوفية عظيمة في نسبه. سَلّم الشيخ أبو مدين على محمد البوزيدي, ثم خاطبه قائلاً: "اذهب إلى المغرب, فقد سرّحتك". هذه الكلمات تُعد إشارة صوفية واضحة وتوجيهًا ربانيًا بالرحيل والانتقال إلى المغرب, أي أذنت لك بالرحيل وأطلقتك, وهي بمثابة إذن بالانتقال لمرحلة جديدة في مساره الروحي.

على الرغم من وضوح الإشارة, أبدى محمد البوزيدي ترددًا وهو شيء طبيعي لشاب مقبل على رحلة مجهولة في أرض قد يُنظر إليها بأنها ذات مخاطر بيئية (السموم والحيات) أو تحديات أخرى. لكن الشيخ أبو مدين مدّ يده المباركة ومسح بها جسد محمد البوزيدي, وقال له مطمئنًا: "اذهب ولا تخف, فإنك محفوظ بإذن

الله". هذا المسح المبارك كان بمثابة تأكيد على الحفظ الإلهي وطمأنة لقلب الشيخ البوزيدي. هو ليس مجرد كلام, بل هو لمسة روحية تحمل في طياتها الحماية والعناية الربانية, وتزيل أي مخاوف أو تردد.

أكدت الرؤيا أن المغرب هو الوجهة التي قدَّرها الله له, وأنها المكان سيجد الشيخ البوزيدي كماله الروحي, وتحقيق مقامه, وظهور سره. لم تكن الرؤيا مجرد توجيه, بل كانت أيضًا بشارة بمستقبل زاهر. تُبشره بأن الله سيفتح عليه من العلوم والمعارف, وسيُصبح إمامًا, مرجعًا وقدوة في طريق الله.

تُشكل هذه الرؤيا نقطة تحول كبرى في حياة الشيخ محمد البوزيدي. فبعد محنة السجن ورحلة السير, جائه التوجيه الإلهي الواضح عبر أقطاب الأولياء ليُحدد مساره المستقبلي نحو المغرب, ويأمنه على سلامته, ويُبشره بالفتح والإمامة, مُؤكدًا أن هذه الرحلة هي جزء من تدبير إلهي لتحقيق كماله الروحي وقيادته للخلق.

صحبة مباركة وفتحا مبينا

بعد توجيهه الإلهي بالتوجه إلى المغرب, , انطلق الشيخ محمد البوزيدي في رحلة جديدة لم تكن مجرد انتقال جغرافي, بل كانت محطة أساسية في تكوينه الروحي, جعل يطوف أثناء سفره على المساجد ليضبط قراءاته للقرآن. فاتفق له يوما أن نزل بجبل كركر, وهو أحد الجبال في منطقة الريف الشرقي قرب بني الوكيل بضواحي الناظور, ويتميز هذا الجبل بوعارة تضاريسه وجمال طبيعته, وكان مقرا لزاوية العارف بالله الشيخ سيدي محمَّد بن قدور الوكيلي, رضي الله عنه, , الذي كان له الأثر الأعمق في فتح بصيرته. فنزل عليه وسأل الإقامة عنده لقراءة القرآن, فأذن له وتفرَّس فيه وكوشف بأحواله وأنه سيكون له شأن في المستقبل. هذا الكشف للشيخ بن قدور يُبرز بصيرته النافذة التي استشرفت مستقبل الشيخ البوزيدي.

مكث عند الشيخ بن قدور مدة يقرأ القراءات السبع, مما يدل على تعمقه في علوم القرآن. بعد ذلك, لقَّنه الشيخ الأوراد العامة, وهي الأذكار والأدعية التي تُشكل جزءًا أساسيًا من الطريقة الدرقاوية. ثم لقَّنه الاسم الأعظم, وهذا التلقين يُعد من أعلى مراحل الذكر في الطرق الصوفية, حيث يُركز على ذكر الاسم الأعظم. وهناك, كانت نقطة التحول الكبرى للشيخ محمد البوزيدي, حيث أشرق الله نور بصيرته. هذا يعني أن الله فتح عليه من أنوار المعرفة والكشف الرباني. فاض قلب محمد البوزيدي بالمشاهدة والعيان, وهذه هي قمة المعرفة الصوفية, حيث يرى العارف الحقائق الإلهية بقلبه وكأنها مشاهدة عيانية, لا مجال فيها للشك أو

الظن. فوصل بذلك إلى درجة الذوق الروحي, وهي التجربة القلبية لمعرفة الله, وتحقق فيه مقام الإحسان الذي هو "أن تعبد الله كأنك تراه" حتى صار من خاصّة مريدي شيخه, وخادمه المقرَّب.

بفضل هذا الفتح والإشراق, أصبح محمد البوزيدي من المقربين جدًا لشيخه محمد بن قدور الوكيلي, وصار خادمه الخاص, وأظهر تفانيه في خدمة شيخه ما يُبرز وصوله إلى أعلى مراتب الصحبة والتربية.

السرّ الغريب

كان محمَّد البوزيدي يقول لشيخه, لما كان يراه من كراماته ونفحاته الروحية:

-"يا سيدي, بلادنا خالية من هذا الفن!" أي علم التصوف السنّي الصحيح, المبني على العلم الشرعي والتزكية النفسية والذكر بالاسم الأعظم المأذون شيخا عن شيخ, إلى رسول الله ﷺ, وما يليه من فتح ربَّاني في معرفة الله بإشراق أنواره على القلوب الذاكرة, فقال له الشيخ ابن قدور: "أهل بلادكم أولادنا, وإنهم سيحصلون على سرّ غريب, والناس لا يظنون بهم خيراً, فعند ذلك تستريحون".

تُقدم هذه الرواية حوارًا عميقًا بين التلميذ وشيخه, وتكشف عن رؤيا مستقبلية وبشارة إلهية تتعلق بنشر علم التصوف السني في الجزائر, وتُلمّح إلى ظهور سر عظيم من خلال تلميذ الشيخ البوزيدي النجيب, الشيخ أحمد العلاوي.

يُعرب الشيخ البوزيدي لشيخه, مُتأثرًا بما يراه من كراماته ونفحاته الروحية, عن شوقه وغايته بالفنّ والمقصود به علم التصوف السني الصحيح وهو المنهج الروحي القائم على الكتاب والسنة, المبني على العلم الشرعي والتزكية النفسية, ما يُؤكد على ضرورة الجمع بين الفقه الظاهري والسلوك الباطني.

الذكر بالاسم الأعظم المأذون شيخًا عن شيخ إلى رسول الله ﷺ يُبرز أهمية السند المتصل في تلقي الأوراد والأذكار, وخاصة الاسم الأعظم, وما يليه من فتح رباني في معرفة الله بإشراق أنواره على القلوب الذاكرة. الذكر الصادق يُفضي إلى كشف الحجب عن القلب ومعرفة الله معرفة ذوقية وشعورية.

هذا الإبداء من الشيخ البوزيدي يعكس همّته الدعوية وشفقته على أهل بلاده, حيث كان يرى الفراغ الروحي لديهم, ويتمنى أن تُنير قلوبهم أنوار الطريق الصوفي. فكانت إجابة الشيخ ابن قدور لتُبشره بفضل

الله العظيم على أهل بلاده, وتُشير إلى مستقبل باهر في هذا الطريق. فالشيخ ابن قدور يرى أهل بلاد البوزيدي كأولاده في المعنى, ما يُشير إلى اتساع نطاق دعوته وبركته وإنهم سيحصلون على سرّ غريب وهذه هي جوهر البشارة.

"السر الغريب" هنا هو إشارة إلى كرامة إلهية وفتح روحي خاص, ونور معرفي فريد سيُخص الله به أهل تلك البلاد. إنه السرّ الذي سيُميّزهم ويجرهم إلى هذا الطريق. لكن هذا الفتح والسرّ سيُصحبه بعض المحن أو سوء الظن من قبل من لا يُدركون حقيقته, أو من يُعادون طريق التصوف. هذه الفترة من الجفاء أو سوء الظن ستكون مؤقتة, وربما تكون علامة على تحقق السر الغريب والفتح الرباني, فبعدها سيزول التعب النفسي أو الجدال. تُربط هذه البشارة بتحققها في شخصية بارزة في الطريقة الشاذلية, وهو الشيخ أحمد العلاوي الذي يُعَّد أحد كبار أعلام التصوف في القرن العشرين, ومؤسس الطريقة العلاوية الشاذلية التي انتشرت انتشارًا واسعًا في العالم الإسلامي وخارجه. يُمكن أن يُفسر هذا بعدة وجوه, منها انتشار طريقته بشكل لم يسبق لها مثيل, فقد استطاعت الطريقة العلاوية أن تصل إلى آفاق جديدة وتجذب عددًا كبيرًا من المريدين, والشيخ العلاوي جاء بتجديد في الطريقة الشاذلية, وبلوَر مفاهيمها بطريقة سهلة ومُيسرة للعموم. كان الشيخ العلاوي كاتبًا مُؤثرًا ومُدافعًا قويًا عن التصوف السني, بل وجاهد بأسلوبه الخاص الاحتلال الفرنسي المسيحي جهادا أخلاقيا واجتماعيا ودافع عن الإسلام والقرآن من هجمات المستعمر من خلال جرائده "لسان الدين والبلاغ الجزائري", ما أضاف بعدًا آخر للسرِ الغريب الذي خصَّ به الله هذا التلميذ الاستثنائي.

وأخيرا, تُشير هذه المحادثة إلى أن الشيخ البوزيدي كان يحمل همَّ نشر التصوف السني في بلاده, وتلقى بشارة من شيخه بأن ذلك سيتحقق, وسيُخص الله أهل بلاده بسرٍ غريب الذي سيلعب دورًا محوريًا في إحياء ونشر الطريقة الشاذلية, مؤكدًا بذلك تحقق هذه البشارة الإلهية وتأثيرها المستقبلي.

البوزيدي ناقة الله

لازم محمَّد البوزيدي شيخه ابن قدور وخدمه بإخلاصٍ قرابة ثلاثة وعشرين سنة, ينهل من علمه, ويهذِّب نفسه في حضرته, وكان المقدم الأول في الزاوية, الذي يعتمد عليه, حيث كلفه الشيخ ابن قدّور بالدلالة على الله, والإرشاد, وإدخال المريدين الخلوة, ومتابعة سيرهم. وكان من شدة تعظيمه لنعمة شيخه المربي, كثيراً ما كان يحثُّ أتباعه على زيارة ضريح الشيخ أبو مدين الغوث, ويُثني عليه ويذكر فضله العظيم لكونه سببا في تعرفه على شيخه.

ومن جميل ما سأله تلميذه النجيب أحمد العلاوي: "ما هي البركة؟", أجاب قائلا: "هي القناعة, لأنها كنز لا يفنى, فمن كان له نصيب منها, فلا يحتاج إلى أحد".

ومن العجب أنه لم يذكر لمريديه ولو مرَّة أية حاجة, وكانوا إذا ناولوه بعض الأطعمة أو الأشربة حسب الزمان, يقول متحدّثًا عن أيامه مع شيخه محمَّد بن قدور: "كنا في بعض الأيام نعيش حياة الزهد الخالص, نأكل الحشيش, ونشرب من ماء عين زورة, ونفترش الحلفاء, وكان الفقراء يسمونها بالسندس الأخضر, ونسكن الغيران. وإذا أرسلنا الشيخ لنأتي بنبات الأرض للمعاش, كان الفقراء يتخيَّرون النبات المناسب للأكل, أما أنا فكنت أتناول ما كان بمحاذاتي دون أن أبحث أو أختار, فأنكر عليّ بعضهم, وقالوا: -"في العشب ما لا يصلح للأكل", فقال لهم حينئذ الشيخ محمَّد بن قدور: "دعوا البوزيدي, فهو ناقة الله, يأكل في أرض الله", ثم أضاف في وصف تلك الأيام: "وكنا في راحة وقناعة لم توجد لذّتها".

هذا السرد من الشيخ البوزيدي له جوانب عميقة في إبراز إخلاصه لشيخه, وحكمته في تعريف البركة, وتجربته الفريدة في الزهد الخالص التي أظهرت مدى توكله ورضاه. لازم محمد البوزيدي شيخه ابن قدور وخدمه بـإخلاصٍ لمدة تفوق العشرين عاما, ينهل من علمه ويُهذّب نفسه في حضرته. هذه المدة الطويلة تُشير إلى عمق الصحبة التربوية, وهي فترة كافية لتهذيب النفس, وتعميق العلم, وتلقي الأسرار مباشرة من شيخه, وأظهر مدى تفانيه في خدمة شيخه.

الوفاء والعرفان بالجميل للشيخ أبو مدين الغوث لم ينسه الشيخ البوزيدي, فهو أصل الفضل الذي وصل إليه, ورغم أن شيخه المباشر هو ابن قدور, إلا أنه أرجع السبب الأول إلى الإشارة التي جاءته من الشيخ

أبي مدين الغوث في المنام, ولهذا كان يُعظمه ويحث على زيارته, وهذا من تواضعه, رضي الله عنه, في عدم نسبة الفضل لنفسه أو لجهده, بل إرجاعه إلى الأسباب الإلهية والوسائط الصالحة.

لمَّا سأله تلميذه الشيخ أحمد العلاوي عن البركة, أجابه بتلك الإجابة التي تُعد جوهرًا في مفهوم البركة عند العارفين. المقصود في كلامه أنَّ البركة ليست في الكثرة بل في القناعة والرضا بما قسم الله. المال والجاه يفنيان, لكن القناعة كنز داخلي لا يزول بزوال الدنيا. من رزقه الله القناعة, استغنى عن الناس, فلا يمد يده لغير الله, ولا يذل نفسه لطلب الدنيا. هذا يُعزز التوكل المطلق على الله.

هذه الحكمة تُفسر أيضًا سبب تعجُّب مريدوه أنه لم يذكر لهم ولو مرَّة أية حاجة. فهذا دليل عملي على قناعته واستغنائه عن الخلق.

يُقدم الشيخ البوزيدي وصفًا حيًا لأيامه مع شيخه محمد بن قدور والتي تتميَّز تجربتهم في الزهد الخالص الذي فاق تصورات بعض مريديه. هذا الوصف يُصور حياة في غاية البساطة والتقشف, بعيدة تمامًا عن أي رفاهية.

تسمية الفقراء للحلفاء بـالسندس الأخضر, تُظهر مدى رضاهم وقناعتهم, وتحويلهم للمشقة إلى نعمة وجمال (السندس هو الحرير الرقيق). عندما كان الشيخ ابن قدور يرسلهم ليأتوا بنبات الأرض, كان الفقراء يتخيَّرون النبات المناسب بينما الشيخ البوزيدي كان يقطف ما يحاذيه دون النظر. هذا الموقف يدل على غاية التوكل. عدم الاختيار أو البحث يُعبر عن توكل مطلق على الله, ورضا بما يُلقى أمامه, دون تدبير أو تأنق, واعتبار كل ما يجده فهو رزقٌ من الله يأخذه دون تفضيل. انتقد بعض المريدين هذا السلوك لكن الشيخ محمد بن قدور رد عليهم بحكمة تُظهر مقام الشيخ البوزيدي: "دعوا البوزيدي, فهو ناقة الله, يأكل في أرض الله".

هذا التشبيه بناقة الله (كما في قصة ناقة صالح عليه السلام) يُشير إلى أن الشيخ البوزيدي كان مباركًا, محفوظًا, ومُسيرًا بأمر الله, وأن الله قد كفاه أمر رزقه فلا يُصيبه ضرر مما يأكل, حتى لو بدا للناس غير صالح. إنه إشارة إلى مقام خاص من الحفظ والعناية الإلهية. يختتم الشيخ البوزيدي وصفه لتلك الأيام بقوله: "وكنا

في راحة وقناعة لم توجد لذّتها". هذا يُؤكد أن الزهد الحقيقي لا يُولد حرمانًا أو تعاسة, بل يُورث راحة قلبية وقناعة روحية تفوق أي لذة دنيوية.

تُظهر هذه الفترة الشيخ البوزيدي كنموذج للإخلاص لشيخه, ورمزًا للحكمة في تعريف البركة بالقناعة. والأهم من ذلك, تُقدم تجربته الفريدة في الزهد الخالص كمثال حي للتوكل المطلق والرضا التام, مما جعله "ناقة الله" الذي يُسقى ويُرزق برعاية إلهية خاصة, ويُدرك أن السعادة الحقيقية تكمن في القناعة والراحة القلبية.

﴿ الفصل الثالث: الخلافة المحمَّدية: 1867م / 1284هـ ﴾

القربة برباطها

حين اقتربت ساعة انتقال الشيخ محمَّد ابن قدور إلى جوار ربه, كان يردّد جملة ذات دلالة عظيمة: "أخذ البوزيدي القِربة برباطها". وكانت هذه إشارة واضحة للخلافة الروحية.

تُعد هذه الجملة ذات دلالة عميقة في التراث الصوفي, فهي تُشير إلى اللحظة الحاسمة التي انتقلت فيها المشيخة الروحية والسر الرباني من الشيخ محمد بن قدور الوكيلي إلى تلميذه النجيب, الشيخ محمد البوزيدي.

هذه العبارة هي كناية صوفية بديعة تُشير إلى تسلّم الخلافة الروحية الكاملة, والإشارة إلى القربة في السياق الصوفي, ترمز إلى سر الطريق, والفيض الروحي, والولاية, والعلوم اللدنية, والبركة التي يحملها الشيخ المربي. أمَّا الرباط فهذه إضافة تُعطي دلالة على الكمال والتمام. هذا يعني أن الشيخ البوزيدي لم يتلق جزءًا من السر أو بعض الفيض, بل تسلّم السر كاملاً, بجميع أصوله وفروعه, وبكل ما يحفظه ويحميه. إنه تسليم تام وغير منقوص للميراث المحمدي.

هذه الجملة لم تكن مجرد كلمات عابرة, بل كانت إشارة واضحة وضوح الشمس. في الطرق الصوفية, يتم انتقال المشيخة والخلافة الروحية بطرق مختلفة, وقد تكون بإشارة خفية, أو بعبارة صريحة, أو برؤيا. في هذه الحالة, كانت الإشارة واضحة ومباشرة من الشيخ المحتضر, ما لا يترك مجالًا للشك في مكانة الشيخ البوزيدي وتعيينه خلفًا له.

تُبرز هذه العبارة أن الشيخ البوزيدي قد وصل إلى درجة عالية من الكمال الروحي والتأهيل, ما جعله أهلاً لحمل سر الطريق ووراثة شيخه. يؤكد هذا التسليم على استمرارية سلسلة المشيخة المتصلة, والتي تُعد أساسًا في الطرق الصوفية, حيث ينتقل الفيض والنور من شيخ إلى شيخ. فاختيار الشيخ ابن قدور لتلميذه

البوزيدي بهذه الإشارة العلنية, حتى في لحظاته الأخيرة, ما هو إلا اختيار ربَّاني وتبليغ محمدي, يُعبر عن قدرة البوزيدي على حمل الأمانة والحفاظ على الطريقة ونشرها.

الوصاية بالأمانة

إنَّها لحظات حاسمة تلك قبل انتقال الشيخ محمد بن قدور الذي أذن لبعض مريديه بالعودة إلى ديارهم لنشر الطريقة, بينما كلَّف الشيخ محمد البوزيدي بمهمة خاصة ومحورية وهي خلافته في مقامه والإشراف على زاويته ورعاية أبنائه.

إذن الشيخ ابن قدور لبعض المريدين بالانصراف إلى أهلهم, هو جزء من تدبير الشيخ لنشر الطريقة وتوسيع نطاقها. فمثلا الشيخ محمد الهبري أُذن له بالرجوع إلى بلدته أحفير بإقليم بركان بالمغرب, ويكون هذا بداية لانتشار الطريقة في تلك المنطقة, وهو ما تحقق بالفعل لاحقًا بتأسيس الطريقة الهبرية, والشيخ عبد القادر بن عدة البوعبدلي أُذن له بالرجوع إلى بلدته غليزان بالجزائر, مما يعني أن الطريقة وصلت إلى مناطق في الجزائر قبل عودة الشيخ البوزيدي إليها, وقد أمرهما الشيخ ابن قدور بنشر الطريقة وجمع العباد على الله تعالى. هذا التكليف يُبرز أن هدف الشيخ لم يكن مجرد تلقين الأوراد, بل كان دعوة الناس إلى الله وتوحيدهم على طريقه, وهو جوهر رسالة أي مربٍ ومرشد.

أما الشيخ محمد البوزيدي, فقد كان له تكليف مختلف ومُنفرد حيث أمره شيخه بالمكوث, وكلَّفه بأن يخلفه في مقامه, ويشرف على زاويته, ويرعى أبنائه الصغار. هذا التكليف الخاص يُظهر الخلافة المباشرة. فالشيخ البوزيدي لم يُكلف بنشر الطريقة في منطقة بعيدة, بل بقي ليخلف شيخه في نفس مقامه, وهو ما يُعزز فكرة انتقال المشيخة الكاملة إليه. هذه مسؤولية إدارية وروحية كبرى, حيث سيصبح الشيخ البوزيدي القائم على شؤون الزاوية, مركز التربية والتعليم الروحي بالإضافة إلى رعاية أبناء وأهل شيخه, فهذه المهمة ذات بُعد إنساني عميق.

تكليف الشيخ البوزيدي برعاية أبناء الشيخ الراحل يُظهر ثقة الشيخ ابن قدور المطلقة في أمانة البوزيدي وشفافيته وحنانه. إنه ليس مجرد خليفة روحي, بل هو ولي أمر للعائلة من بعده, وهذا تكليف يفوق مجرد التزامات الطريقة.

الأمر الحاسم من الشيخ ابن قدور بعدم التحرك يُؤكد على لزوم الشيخ البوزيدي للمكان وضرورة بقائه فيه, ما يعني أن مهمته كانت محلية ومباشرة في زاوية شيخه إلى أن يأتيه الإذن, أي بتحرك مستقبلي الذي سيكون بتدبير إلهي وإشارة ربانية, ما يُرسّخ مفهوم التسليم المطلق لإرادة الله تعالى.

تُمثل هذه اللحظة نقطة تحول كبرى في حياة الشيخ محمد البوزيدي, حيث تبلورت مسؤوليته الكاملة كخليفة لشيخه. لقد أُذِن لبعض المريدين بنشر الطريقة في أرجاء البلاد, بينما كُلف هو بالبقاء في مركز الفيض, مُتحملًا أمانة الإشراف على الزاوية ورعاية أسرة شيخه, في دلالة واضحة على ثقة الشيخ ابن قدور فيه وشهادته له بأنه حامل السر ووارث المقام.

الأسباب الخفية وراء تكليفه بالبقاء في الزاوية

الأسباب الكامنة وراء طلب الشيخ محمد بن قدور من تلميذه محمد البوزيدي البقاء في زاويته بعد وفاته. لم يكن الأمر مجرد خلافة روحية فحسب, بل كان تدبيرًا حكيمًا من الشيخ لحماية زاويته وأبنائه, مع إعداد الشيخ البوزيدي لمهمته الكبرى في الجزائر.

السبب الجوهري وراء طلب الشيخ ابن قدور من الشيخ البوزيدي بالبقاء هو تخوفه من استيلاء أشخاص من العائلة (من أخوال وأعمام) على الزاوية مستغلين صِغَرَ أبنائه. في كثير من الأحيان, بعد وفاة الشيوخ الكبار, قد تُثار نزاعات حول خلافة المقام والتحكم في الزاوية, خاصة إذا كان ورثة الشيخ صغارًا.

الشيخ ابن قدور, بحدسه وبصيرته, استشرف هذا الخطر, واختار الشيخ البوزيدي كوصيٍ موثوق به. فاختيار الشيخ البوزيدي بالذات لهذه المهمة كان لعلمه أنه خلفيته في المقام المحمدي. هذا التأكيد يُبرز أن الشيخ ابن قدور كان يُدرك تمامًا مدى كمال الشيخ البوزيدي الروحي واستحقاقه للخلافة, ليس فقط للزاوية, بل للميراث المحمدي الشامل.

إعداد الشيخ البوزيدي لمهمته في الجزائر

بالرغم من تكليفه بالبقاء في الزاوية, كان الشيخ ابن قدور يُدرك أن مهمته (أي الشيخ البوزيدي) تنتظره بالجزائر, وبالتحديد بمستغانم. هذا يُشير إلى رؤية الشيخ ابن قدور الاستشرافية لمستقبل دعوة الشيخ

البوزيدي. فبقاؤه في الزاوية لم يكن نهاية المطاف لمهمته, بل كان مرحلة إعداد وتأهيل إضافية قبل انطلاقه إلى مهمته الكبرى في وطنه الأم.

أحد الأسباب الهامة الأخرى لبقاء الشيخ البوزيدي كان يتعلق بتربية ابن الشيخ ابن قدور الأصغر مولاي الطيّب, حيث كان عمره آنذاك أربع عشرة سنة, الذي أهلَّه والده لخلافته, فكلَّف الشيخ البوزيدي بإتمام تربيته وسلوكه. هذا يُؤكد على الأمانة التربوية والثقة العميقة للشيخ ابن قدور في الشيخ البوزيدي كمربٍّ روحي مؤهل.

وفيما يخص عدم التحرك حتى يأتي الأذن, وهو ظهور العداوة من زاوية كركر. وهذا يعني أن الشيخ البوزيدي كان عليه البقاء حارسًا للزاوية ومربيًا لوريث الشيخ, حتى تُصبح الأجواء غير مواتية لبقائه بسبب العداوات الداخلية. وهذا ما حدث بالفعل بعد ست سنوات من انتقال الشيخ ابن قدور, حيث غادر الشيخ البوزيدي الزاوية بعد أن أتم مهمته وتلقى الإشارة الإلهية (عبر هذه الأحداث) بالانصراف.

كان قرار الشيخ ابن قدور ببقاء الشيخ البوزيدي في زاويته تدبيرًا إلهيًا حكيمًا, يجمع بين حماية تراث الزاوية من الصراعات العائلية, وتأهيل وريثه الصغير, وفي نفس الوقت, إعداد الشيخ البوزيدي لمهمته الكبرى المنتظرة في الجزائر. هذه الفترة كانت بمثابة اختبار لإخلاص الشيخ البوزيدي وأمانته, وانتقالًا منه إلى مرحلة القيادة الكاملة عندما حانت ساعة الإذن بالانصراف.

منهج التربية

بعد انتقال الشيخ ابن قدور, ووفاءً لوصيته, نفَّذ الشيخ البوزيدي وصية شيخه بكل تفانٍ, فبقي يخدم الطريق ويقوم بجميع شؤونها, بالإضافة إلى رعاية شؤون أهل بيت شيخه, وذلك بالتوازي مع عبادته الخاصة وعمله في التربية والتعليم, وهذا يُظهر اتساع مسؤولياته وعمق أمانته.

الإشراف على أمور الزاوية, تنظيم الأوراد, توجيه السالكين, ورعاية أهل البيت دليل على وفائه وحنانه, فقد كُلف برعاية أبناء شيخه الصغار (مولاي الطيِّب خاصة), فكان معلما ومرشدا ومربياً حكيماً, وكل هذه المهمَّات تلخص جوهر دوره القيادي. كان يوجه المريدين في سيرهم إلى الله, يُلقنهم الاسم الأعظم (وهو

ركن أساسي في طريقة الوصول), ويغرس فيهم آداب الطريق, وصفاء القلب, وتزكية النفس, وهي المقومات الأساسية للوصول إلى الله.

مع تزايد عدد المريدين, واجهت الزاوية نقصًا في وسائل الراحة, أو حتى الفرش للجلوس. هذا التحدي لم يُثنِ الشيخ عن مهمته, بل حوَّله إلى فرصة لتعليم الزهد العملي بطريقة رمزية عميقة, كان يأمر بقطع نبات القطف, وهو نوع من الحشيش الأخضر الغليظ, ثم يقول لهم: "اجلسوا, هذا سُندس وإستبرق". هذه العبارة البليغة تُشير إلى ثياب أهل الجنة, وهي كناية عن أعلى درجات النعيم والرفاهية في الآخرة.

هذا التصرف من الشيخ البوزيدي كان درسًا عمليًا في الرضا بما قسم الله, يُعلمهم أن السعادة والنعيم لا يكمنان في وفرة المتاع, بل في الرضا باليسير والشكر عليه, ويرفعهم من مستوى التفكير المادي إلى مستوى روحي يُدركون فيه أن النعيم الحقيقي هو نعيم القلب ويُرسّخ في نفوسهم أن "من طابت نفسه طاب له كل شيء, ولو كان عشبًا". فالشخص الذي تتطهر نفسه ويرضى بقدر الله, يرى الجمال والنعيم حتى في أبسط الأشياء التي قد يراها الآخرون حرمانًا. هذا يربط بين طيبة النفس والنعيم الباطني.

تُظهر هذه المرحلة من حياة الشيخ البوزيدي كفاءته العالية في خلافة شيخه وأمانته في حمل الأمانة. لم يكتفِ بالتعليم النظري, بل جسد مبادئ الزهد والرضا في حياته اليومية, مُحولًا قلة الموارد إلى دروس عملية عميقة, يُربي بها مريديه على القناعة, والصفاء, والرضا, وأن النعيم الحقيقي ينبع من الداخل, حتى يصبح "القطف" في أعينهم "سندس وإستبرق".

بعد ست سنوات قضاها الشيخ محمد البوزيدي في رعاية زاوية شيخه محمد بن قدور الوكيلي وتربية أبنائه, وإرشاد السالكين إلى الله, والقيام بمهمة التذكير وتزكية النفوس وسقاية القلوب بما ينبع من لسانه من كلام قريب العهد بربِّ العالمين, يأتي أخيرا الإذن الربَّاني للرحيل نحو بلده الجزائر.

الفتنة وشبح الموت

طلت الفتنة برأسها, مُجبرةً الشيخ على مغادرة المكان الذي أُمر بالبقاء فيه, ومُؤكدةً تحقق إشارة شيخه له, بالذهاب, وكان يعلم مسبقا طبيعة الإذن إذ كاشفه بها شيخه محمد بن قدُّور, رضي الله عنه.

بعدما ظل الشيخ البوزيدي قائمًا على شؤون الزاوية, يُربي ويُعلّم ويُنوّر القلوب, مُلتزمًا بوصية شيخه, فسرعان ما مرَّت تلك الفترة من الهدوء لتخلفها عاصفة هوجاء, حيث بدأت الفتنة تطرق الأبواب. قام بعض الحُسّاد من الفقراء بتحريض أبناء الشيخ ابن قدور ضد الشيخ البوزيدي. كانت ادعاءاتهم محض افتراء وظلم مثل: "استولى على زاويتكم, وأخذ مكان أبيكم" وهي اتهامات باطلة, فالشيخ البوزيدي لم يكن سوى خليفة مؤقت عُيّن من قبل شيخه لخدمة الزاوية ورعاية أبنائه, و "أنه ماكث لا محالة, وليس براحل", وهذا الاتهام يُناقض وصية الشيخ ابن قدور, الذي أذن للبوزيدي بالرحيل متى جاءته الإشارة. والأخطر من ذلك: "يجب قتله للتخلص منه واسترجاع زاوية أبيكم", وهذا الاتهام الخطير يُظهر مدى سوء النية والحقد الذي سيطر على هؤلاء الحُسّاد, والذي وصل بهم إلى حد التحريض على القتل. كل هذه الادعاءات كانت محض افتراء وظلم تجاه رجلٍ لم يكن همّه سوى الوفاء بالعهد وتنفيذ الوصية وخدمة الطريق.

عندما بلغه خبر الاغتياب والتهديد بالقتل من بعض مريديه الصادقين, أدرك الشيخ البوزيدي فورًا أنها إشارة الإذن بالرحيل التي ذكرها له شيخه ابن قدور سابقًا. فقال لمريده: "الآن أتاني الإذن من شيخي بالرحيل". يُظهر هذا مدى تسليم الشيخ لإرادة الله ولتوجيهات شيخه, فالفتنة والتهديد كانا هما العلامة التي ينتظرها, ثم أضاف: "والحمد لله, قد وفيت بما كُلِّفتُ به من شيخي في تأديب أبنائه وتعليمهم", وهذا يُبين أن الشيخ أتم مهمته في رعاية أبناء شيخه, وهذا دليل على أمانته ووفائه بالعهد, وختم قوله: "والآن علمتُ علم اليقين أنهم قد بلغوا سنّ رشدهم, فلا خوف عليهم", وهذا التصريح يُشير إلى أن الشيخ البوزيدي قد أدى دوره التربوي على أكمل وجه, وأن أبناء شيخه أصبحوا قادرين على تحمل المسؤولية, ما رفع عنه عبء البقاء.

مروره بقبيلة "آيت سعيد"

غادر الشيخ البوزيدي جبل كركر متوجهًا إلى قبيلة "آيت سعيد". ففقده فقراء زاوية كركر الذين لم يكونوا جزءًا من الفتنة, والذين لا تعنيهم الفتن التي قامت على شيخهم, ما يُؤكد أن الحب والولاء الحقيقيين للشيخ كانا موجودين لدى بعض المريدين. بحثوا عنه حتى وجدوه واجتمعوا عليه, فاستأنف معهم دروس

العلم والتربية, مما يُظهر حرصه على الاستمرار في مهمته الروحية رغم الظروف. لكن تهديد القتل لم يهدأ, بل زادت خطورته, حيث قام عليه أولاد شيخه (بتحريض من شياطين الإنس) فدسُّوا عليه من يقتله. أُخبر الشيخ بذلك, مما اضطره إلى مغادرة المنطقة مرة أخرى, ولكن هذه المرة نهائيا وسرًّا وبالليل, مُتجنبًا المشي في النهار حتَّى يفوِّت الفرصة على من أراد به سوء.

إن شدة الابتلاء الذي وصل إلى حدِّ التهديد بالقتل, دفع بالشيخ البوزيدي إلى التخفي ومغادرة المنطقة. لم يفقد الشيخ توكله, لكنه أخذ بالأسباب, وهو أمر أساسي في سلوك العارف. رغم كل هذا الأذى, لم يُذكر أن الشيخ رد الأذى بالأذى, بل اختار الانسحاب بصمت.

وردانة "يثرب المغرب": (1873م / 1290هـ)

بعد رحلته الشاقة ومراوغته لأصحاب السوء, وصل الشيخ البوزيدي بعد غروب الشمس إلى قرية "وردانة" (فرخانة حاليًا). لم يكن هذا مجرد توقف عابر, بل محطة محورية في حياته, شهدت كرامة عظيمة, وحدث زواجه, وتأسيسه لمركز روحي وعلمي أثَّر في المنطقة بأسرها.

مواجهة الجان

عند وصوله إلى مسجد "وردانة" لطلب الضيافة والمعروف بمسجد مولاي إدريس, عرّف نفسه بصدق كفقيه ومعلم الدين للأولاد, وقام أهل القرية بواجب ضيافته, وطلبوا منه أن يصلي بهم صلاة العشاء. بعدها, أبدوْا قلقهم من إيوائه في منازلهم بسبب غارات القبائل المجاورة, فاقترحوا عليه المبيت في المسجد أو مغادرة القرية. لكنهم حذروه بأن المسجد مسكون بجان ضار, تسبب في أذى لمعلمي القرآن السابقين. أمام هذا التحدي, لم يتردد الشيخ البوزيدي, بثقة وإيمان عميقين, رد عليهم مستشهدًا بالآية الكريمة: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" (آل عمران: 145), أنا وهذا الظالم تجري علينا جميعًا مقادير الله". هذه الكلمات كشفت عن توكله المطلق على الله وإيمانه بأن الآجال مقدرة.

عندما ظهر الجان بصوت مرعب ولهيب ودخان, باشر الشيخ البوزيدي بتلاوة سورة الإخلاص. ثبت الله قلبه, ومع تكرار التلاوة موجهًا سبابته نحو الجان, احترق الجان بنور وبركة السورة حتى تحول إلى حفنة من

رماد. هذه الكرامة لم تُظهر فقط قوة القرآن وفاعليته, بل أثبتت أيضًا ثبات قلب الشيخ وتوكله على الله, فسرُّ القوة الحقيقية يكمن في الإيمان بقوة الله لا بقوة المرء الذاتية.

زواج ولقب عفوي مستحدث

بعد أن طهّر المسجد من الجان, وجده أهل القرية في طمأنينة وخشوع يذكر الله. لمّا عزم على الرحيل, طلبوا منه البقاء لتعليم أبنائهم القرآن وعلوم الفقه. تجسدت ثقتهم ومحبتهم فيه عندما تقدم كبير القوم, محمد بن يحيى الورداني (حمُّو), وعرض عليه ابنته فاطمة للزواج, فقبل الشيخ العرض ومكث معهم. منذ ذلك الوقت, لُقب الشيخ محمد البوزيدي بـ"سيدي حمّو الشيخ", وهو لقب يُطلق على من يحمل اسم "محمد" في شمال المغرب بين السكان الريفيين, ما يدل على المكانة الرفيعة والمحبة التي حظي بها بين أهل المنطقة.

مركز روحي جديد وانتشار الصيت

انتشر خبر الشيخ محمد البوزيدي وكراماته بسرعة, وعم صيته في شمال المغرب بأكمله. حتى أن فقراء زاوية كركر, الذين تسبب البعض منهم في الفتنة ضده, سمعوا بذلك, وجاؤوا إليه طالبين مواصلة السير إلى الله معه. لكن الشيخ أمرهم بالعودة إلى زاويتهم, موضحًا لهم: "لست مقيمًا هنا, بل عازم على الرحيل إلى وطني". في غضون شهور وأعوام, تحول مسجد قرية وردانة - والتي تستحق أن يطلق عليها اسم "يثرب المغرب"- إلى مركز روحي وعلمي يقصده طلاب العلم من كل مكان. خرج من هذه الزاوية عدد كبير من الشيوخ المتبحرين في علوم الشريعة والتصوف, ما يبرز الأثر العظيم الذي تركه الشيخ البوزيدي, محولًا مسجدًا بسيطًا إلى منارة للعلم والتربية الروحية.

﴿ الفصل الرابع: عودته إلى الجزائر: 1880م / 1297هـ ﴾

من وردانة إلى مستغانم

إن الانتقال الجغرافي في سيرة الشيخ البوزيدي يحمل في طياته دلالات عميقة تتجاوز مجرد رحلة جغرافية, إنه يجسّد فلسفة الداعية في إدارة مهمته الدعوية والتذكيرية وتفاعله مع الواقع الجغرافي والاجتماعي.

لما رأى الشيخ البوزيدي أن الله منّه بالتوفيق في دعوته, وأن الخير قد عمَّ البلاد, والنور سكن قلوب العباد, أدرك أن مهمته انتهت في تلك البلاد, فتوجه نحو الجزائر رفقة زوجته, السيدة فاطمة, وولده محمَّد, ورافقتهم السيدة الوردانية, أخت زوجته والتي سيزوجها لاحقاً بأحد أبناء عمه, البوازيد. فمر بمليلية, ونزل بأحد مساجدها, فبات فيه يوماً أو يومين, ثم ركب السفينة إلى وهران وحطَّ رحاله بمسقط رأسه مستغانم واستقر في حيِّ "تيطلقين" بمنزل مقابل لمسجد سيدي يعقوب.

هذا الإدراك ليس نابعًا من تقييم بشري سطحي لعدد المريدين أو حجم الانتشار, بل هو رؤية روحانية لعمق التأثير الذي أحدثه في النفوس, والتحوّل الداخلي والجوهري في المجتمع, الذي هو الهدف الأسمى لأي دعوة ربانية.

قراره بالرحيل من وردانة في هذا التوقيت يُظهر حكمة بالغة وبعد نظر. الداعية الحقيقي لا يسعى للشهرة أو التمكين المادي, بل هو مدفوع بإنجاز المهمة الموكلة إليه. فبمجرد أن أدرك أن مهمته قد انتهت في هذا البلد (وردانة خاصة والريف الشرقي عامة), لم يتشبث بالمكان أو بالنجاح الذي حققه فيه, بل كان مستعدًا للانتقال إلى مرحلة جديدة. هذا يعكس تجرده عن حظوظ النفس وتركيزه على مراد الله من دعوته. الرحيل هنا هو تلبية لنداء الحكمة الإلهية التي تحدد لكل عمل أجله ولكل مرحلة نهايتها.

يتبن لنا من خلال هذه التفاصيل, وبالرغم من سموه الروحي, أنه كان إنسانا يعيش تفاصيل الحياة اليومية ويرتحل بالطرق المعروفة, ويُبرز جانب الإنسانية والمسؤولية لديه. ومما يشُّد الانتباه, هو مروره بمليلية ونزوله بمسجد مولاي إدريس, وهذه إشارة إلى سياق الطرق الصوفية المغاربية, حيث كانت المساجد والمقامات

تُشكل محطات رئيسية للمسافرين وطلبة العلم, وهي كذلك إشارة إلى عمق الروابط الروحية العابرة للحدود الجغرافية.

انتقاله إلى مستغانم, والتي هي معروفة بتاريخها العريق كمركز علمي وروحي, كانت بيئة خصبة لاستئناف دعوته بعد فترة الغربة. الاستقرار في منزل مقابل لمسجد سيدي يعقوب يوحي بـالاستمرارية والترسيخ في بيئة دينية, حيث يكون المسجد مركزًا للنشاط والعلم.

يمكن فهم هذه الرحلة أيضاً كانتقال من مرحلة دعوية إلى أخرى. فبعد أن نجحت دعوته في وردانة وعمَّ فيها الخير, أصبحت مستغانم هي الأرض الجديدة التي ينتظرها ذاك الخير. هذا الانتقال يمثل إعادة تموضع للشيخ ودعوته في مكان يمكن أن تتجدد فيه الجهود وتُثمر من جديد, وهو ما سيتضح لاحقًا.

بشكل عام, هذا يرسم لنا صورة لداعية يتحرك بتوجيه إلهي وببصيرة روحية عميقة, يُدرك حدود مهمته في مكان ما, ثم ينتقل ليزرع بذور الخير في مكان آخر, حاملًا معه إيمانه, أهله, وحكمته.

فترة الابتلاء والخمول

هناك, في مستغانم, تكلم بفن التصوف, كما قد كان تكلم به من قبل, وجعل يدعو الناس إلى طريق الله تعالى, فالتفَّ حوله جماعة من المريدين, لكنه واجه مضايقات وأذى (ويبدو أن كلمة "مضايقات وأذى" لا تفي بما لاقاه, بل إن الوجود واجهه بالاعتراض كما ذكر ذلك, رضي الله عنه) من بعض الذين كانوا يعارضونه ويحسدونه ويخشون من نجاح دعوته وخاصة من مشايخ الزوايا التبرُّكيَّة, فمثلا تمَّ تبليغ السلطات الاستعمارية متهمين إيَّاه بانتمائه إلى الجماعات الدرقاوية المسلَّحة, أتى من المغرب ليهيئ مقاومة شعبية.

يُسلّط هذا, الضوء على مرحلة حساسة للغاية في حياة الشيخ البوزيدي الدعوية في مستغانم, مُبرزاً التناقض بين الإقبال الشعبي عليه (التفاف جماعة من المريدين) والمواجهة العنيفة من جهات أخرى. هذه المواجهة لم تكن مجرد "مضايقات", بل كانت صراعاً على النفوذ والتأثير الروحي والاجتماعي. كل ذلك الاعتراض والحسد والخشية من نجاح دعوته يبرز لنا مدى تهديد فكر الشيخ وطريقته لمكانة مشايخ الزوايا التبركية, الذين ربما رأوا في دعوته التي تُركز على التصوف الحقيقي والارتباط بالله, تحدياً لمصالحهم أو

لطريقتهم القائمة على التبرك المادي والظاهري. هذا يشير إلى حركة إصلاحية ضمنية كان الشيخ يقودها, تسعى لتصحيح المفاهيم الصوفية وتنقيتها.

النقطة المحورية الأخرى هي تدخل السلطات الاستعمارية, فاتهام الشيخ بالانتماء إلى "الجماعات الدرقاوية المسلحة" وتخطيطه لمقاومة شعبية يكشف عن الطبيعة الأمنية والحذرة للاستعمار تجاه أي تجمعات روحية أو شعبية قد تتحول إلى بؤرة للمقاومة. لم يكن المستعمر يفرق بالضرورة بين التصوف الروحي والتنظيمات الشعبية المسلحة, بل كان ينظر لأي تجمُّع حول قائد ذي نفوذ بعين الريبة والشك, وهذا ما جعلهم يشكون في الشيخ البوزيدي.

الرؤيا النبوية الأولى: الأمر بالامتناع عن التذكير

ففي تلك الفترة العصيبة, رأى رسول الله ﷺ وأمره بالصمت والامتناع عن الدعوة والإرشاد إلى حين. ومنذ ذلك الوقت, أوقف نشاطه حتى أصبح كطالب عادي, لا يَظهر عليه شيء من علمه أو مكانته, حيث كتم أمره, وامتنع عن التذكير والدعوة إلى الله, مقتصرًا على تعليم القرآن للأولاد فقط, وكاد أن يحترق لامساك لسانه عن التذكير.

تعتبر رؤية الرسول ﷺ وأمره بالصمت نقطة تحول جذرية وفاصلة. إنها ليست مجرد تجربة شخصية, بل هي توجيه إلهي يغير مسار حياته الدعوية. هذه الرؤيا تدفع الشيخ إلى الصمت التام وكتمان أمره, وهو ما يمثل اختباراً إيمانياً عظيماً لرجل وهب حياته للدعوة والإرشاد. إن إمساك لسانه عن التذكير حتى كاد أن يحترق, يُعبِّر بعمق عن المعاناة الداخلية التي عاشها. إنه صراع بين الشوق الفطري للدعوة وإيصال العلم وبين الطاعة المطلقة للأمر الإلهي الذي جاء عبر الرؤيا النبوية. هذا الصمت لم يكن ضعفاً, بل كان قوة وصبرًا وحكمة, لأنه أدرك أن المصلحة العليا في تلك الفترة تقتضي التوقف عن النشاط الظاهري.

تحوّله إلى طالب عادي, واقتصاره على تعليم القرآن للأولاد يُظهر مدى تواضعه وعمق بصيرته, ولكن في بعض الأحيان كان يزور مريديه في متاجرهم ليتفقد أحوالهم الباطنية وربما كان يذكِّرهم إن لزم الأمر. ففي ظل هذه الظروف الصعبة, اختار التربية الصامتة والأساسية كسبيل للحفاظ على نور المعرفة. ورغم صمته

الظاهر, فإن زيارته لمريديه في متاجرهم لتفقُّد أحوالهم, تكشف عن استمرارية الاتصال الروحي الخفي, وأنه لم يتخلَّ عن دوره تماماً, بل تكيف مع الظروف بحكمة.

هذه الفترة تُقدّم لنا صورة عميقة عن ثبات الشيخ البوزيدي وصبره, وحكمته في التعامل مع التحديات السياسية والروحية, وطاعته لأمر الله, حتى لو كان ذلك يعني الامتناع المؤقت عن نشاطه الظاهر من أجل مصلحة أعمق.

الرؤيا النبوية الثانية: البشارة والأمر بالتذكير

بعد هذه الفترة العصيبة, أتت مرحلة مهمة ومليئة بالبشائر في حياة الشيخ البوزيدي, خاصة بعد فترة الصمت القسري التي فرضتها عليه الظروف والرؤيا النبوية السابقة. بدأت هذه المرحلة برؤيا مباركة يرى فيها الشيخ مجموعة من الفقراء, وكل منهم يعلق مسبحته في عنقه. هذه الرؤيا, التي استشعر منها الشيخ بشارة بحركة إيجابية في المستقبل, لم تكن مجرد حلم عابر, بل كانت تمهيدًا وتأكيدًا ربانيًا على قرب انتهاء مرحلة الخمول وبداية مرحلة جديدة من العطاء والظهور العلني. ثم أتى بعدها التأكيد الأقوى والأكثر أهمية, وهو رؤيته لرسول الله ﷺ الذي أذن له صراحة بالدعوة بقوله: "تحدث ولا حرج". هذا الإذن النبوي يمثل نقطة تحول كبرى, فهو يرفع عنه قيد الصمت السابق ويمنحه الشرعية الروحية لاستئناف نشاطه الدعوي بقوة وثقة.

اللقاء المصيري: أحمد العلاوي (1894م / 1311هـ)

عندئذ أتى حدث بالغ الأهمية, وهو اجتماعه بتلميذه النجيب أحمد بن عليوة, والذي سيعرف لاحقًا بـ "العلاوي", عن طريق شريكه التجاري وصديقه وابن عمته في نفس الوقت, ابن عودة ابن سليمان. من المعروف أن ابن عودة هو من كان له الفضل في اكتشاف ملامح الإمامة والدلالة على الله في الشيخ البوزيدي, وكان سببًا في توجيه أحمد ابن عليوة للشيخ البوزيدي. هذا اللقاء لم يكن مجرد لقاء عادي, بل كان بداية لعلاقة روحية ستثمر عن انتشار للطريقة البوزيدية, ثم العلاوية لاحقًا, ما يؤكد الحكمة الإلهية في تدبير الأسباب والربط بين الرجال العظام.

نمو الدعوة وصبر الشيخ

على الرغم من أن عدد مريدي الشيخ في تلك الفترة المبكرة لم يتجاوز العشرة أفراد, بسبب مدّة صمته المُكره وخموله الطبيعي, إلا أنه يشير أن الله كان يهيئ له الأسباب لبزوغ نجمه وإشراق شمسه في المستقبل القريب. هذا التدرج في أعداد المريدين, من أقل من عشرة إلى نحو الأربعين رجلاً لاحقا, يوضح أن الدعوة لم تنتشر بشكل فوري, بل كانت تتطلب وقتًا وصبرًا, وهي سمات تجلت بوضوح في شخصية الشيخ البوزيدي.

علامة الرضا والقرب الإلهي

لقد عانى الشيخ البوزيدي منذ شبابه شتى أنواع المحن, والتي كانت سببا بتأصيل فلسفة الشيخ في التعامل معها. فالابتلاءات لم تكن عائقًا له, بل أصبحت شيئًا معهودًا لديه, وموقفه منها كان دائمًا يتسم بالصبر وببسمة راضية. هذا ينم عن رضا عميق بالقدر وفهم روحاني لمعنى الابتلاء, حيث أدرك يقينا أنه لم يسقط من عين الله, بما أنَّ الابتلاء علامة رضى الله وقربه. ما يلخص جوهر التصوف الحقيقي, هو أنه لا يجب أن يُنظر إلى المحن على أنها عقاب, بل على أنها اختبار وتطهير وسبيل للتقرب من الخالق. هذا الجانب يعمق فهمنا لشخصيته الصامدة والمتوكلة.

هذا الجزء من سيرته العطرة يُظهر الشيخ البوزيدي كشخصية عظيمة تتحرك بتوجيه إلهي, ويُبرز كيف أن المحن لا تزيده إلا ثباتًا ويقينًا, وكيف أن الله يفتح الأبواب في الوقت المناسب بعد فترات الصبر والانتظار.

﴿ الفصل الخامس: بزوغ نجمه: 1895م/1313هـ ﴾

لا ينبغي لشمسان أن تجتمعا في نفس المكان
هذه الفترة تشكّل نقطة تحوّل محورية وفصلًا بالغ الأهمية في سيرة الشيخ البوزيدي, حيث يرفع الستار عن مكانته الحقيقية بعد فترة طويلة من الصمت والخمول القسري.

مستغانم, التي لقبت بـ "مصر الصغيرة" لكثرة مجالس الذكر والعلم والصلاح فيها, وهذا التلقيب ليس مجرد مدح جغرافي, بل هو إشارة إلى البيئة الروحية الخصبة التي كانت تتمتع بها المدينة, ما يجعلها أرضًا مهيأة لاستقبال الأسرار الربانية وظهور الأولياء, شهدت في أحد أيام خريف 1895م / 1313هـ قدوم الشيخ محمد ظافر المدني الصفاقسي.

الشيخ محمد ظافر المدني الصفاقسي (1829م – 1907م / 1244هـ - 1325هـ), من أولياء الله, وفقيه مالكي وصوفي شاذلي. ولد في مصراتة بطرابلس الغرب العثمانية, ثم سكن المدينة المنورة فنسب إليها, واستقر شيخًا لزاوية الشاذلية بالآستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية, وتوفي بها. وكان وثيق الصلة بسلطان عبد الحميد الثاني. له عدة كتب ورسالات في التصوف والأوراد والأذكار.

قدومه إلى مستغانم لاقى اهتماما شديدا ما يؤكد على التقدير العميق لمكانة العلماء وأهل الله في المجتمع المستغانمي, ونادى منادي داعيا الناس للاجتماع في زاوية الشيخ الحرَّاق بن كريتلي (شيخ الزاوية السنوسية الموجودة بـ "تجديت" قرب ضريح سيدي السنوسي).

مأدبة الاستقبال وشرارة الاعتراف
الاجتماع الديني ومجلس الاستقبال الذي أُقيم على نفقة الشيخ الحرَّاق -المعروف بصلاحه وسخائه-, يمثل الخلفية التي ستشهد لقاء عمالقة الأولياء الربَّانيين.

غاب الشيخ الحرَّاق للحظات ليأمر بخدمة الضيوف, فقام الشيخ المدني إلى مناداته ثلاث مرات بصوت عالٍ: "يا سيدي الحرَّاق!". هنا أتاه الرد -الذي أشعل شرارة الاعتراف- على لسان الشيخ محمد البوزيدي:

"لا يكون الحرَّاق حراقًا في طريقتنا حتى يحرق الكون من عرشه إلى فرشه". هذا الرَّد ليس مجرد كلام عابر؛ إنه يكشف عن عمق المعرفة الباطنية للشيخ البوزيدي. فـ "الحرَّاق" (الذي يحرق) في التصوف هو من بلغ درجة عظيمة في الفناء ومحو الذات, بحيث تتلاشى لديه كل العلائق الدنيوية, فيصبح قادراً على حرق كل ما سوى الله.

هذا المعنى العميق, أبهر الشيخ المدني, وسأل عن قائل الكلام, فقيل له: "هذا البوزيدي الذرَّار, يعلّم الصبيان القرآن". فقال الشيخ: "بل هو معلّم للكبار, ائتوني به ", لأنه أدرك أن قائل هذا الكلام ليس بفقيه عادي أو معلم صبيان.

الذرَّار معلم الكبار

إعجاب الشيخ المدني بالرد, دفعه للسؤال عن قائله. وعندما قيل له: "هذا البوزيدي الذرَّار, يعلم الصبيان القرآن", تأتي كلمته الحاسمة التي ترفع الستار عن الحقيقة: "بل هو معلم للكبار, ائتوني به". هذه الجملة هي اعتراف صريح من وليٍ عارف بولاية وعلم وليٍ آخر كان في خمول. لقب "الذرَّار" (الذي يدرس القرآن للصبيان) كان يخفي حقيقة "معلم الكبار" الذي يخزن علوم القوم.

فتمَّ اللقاء بين الشيخين وتبادلا الحديث في "علوم القوم" (التصوف), فتأكد لدى الشيخ المدني بمقام الولاية للشيخ البوزيدي وعمق علمه وعظيم معرفته, ولم يتأخر لإعلان ذلك على الملأ, حيث وقف مخاطبا الحاضرين بكلام ممتدحا فيه الشيخ البوزيدي.

اختبار الأوراق

في اليوم الموالي, طلب الشيخ المدني من الحاضرين أن يكتب كل منهم ما يخطر بباله, وهو اختبار روحي عميق ووسيلة لكشف البصائر. فطلب الشيخ محمَّد البوزيدي من تلميذه أحمد ابن عليوة (العلاوي) أن يكتب ما يجول بخاطره, فكتب في ورقة: "إن شئت: بنظرة تسقي الأنام, وإن شئت: بلمحة تمحي العالم". هذه العبارة هي قمة الإعجاز الروحي, والتي تعبر عن القدرة الربانية الكامنة -في نظر الولي الكامل- التي يمكنها أن تبعث الحياة في القلوب (تسقي الأنام) وتُفنيها في الله (تمحي العالم). فأمسك الشيخ المدني بتلك الورقة, وأمر بإحراق الباقي, ثم سأل عن كاتبها, فقيل له أنه: "مريد ذلك الرجل الذي تكلم بالأمس", وهذا يُظهر

مدى القوة الروحية التي يحملها الشيخ البوزيدي وتلاميذه. لقد تجاوزت ورقة أحمد ابن عليوة (العلاوي) كل ما كتبه الحاضرون, لأنها كانت تعكس حقيقة أستاذه الشيخ البوزيدي ومقامه العالي.

تواضع الشيخ المدني وشهادة الحق

ذروة المشهد تأتي بخطاب الشيخ المدني لأهل مستغانم, حيث قام مخاطبا الجمع: "يا أهل مستغانم, كيف غفلتم عن رجل هو إمام عصره وواحد زمانه؟! فوالله, لو علمت بوجوده في هذه المدينة, ما دخلتها, وإن كان لا بد من دخولها, فبإذنه!".

هذه الشهادة ليست مجرد ثناء, بل هي إقرار علني بمقام القطبية والإمامة للشيخ البوزيدي. وتواضع الشيخ المدني في قوله "ما دخلتها إلا بإذنه" هو قمة الأدب الصوفي والاعتراف بالفضل لأهله, ثم ختم قائلاً: "يا أهل مستغانم, إن كان مرادكم الله, فبلدتكم عامرة, أما أنا, فلا تنتظروني بعد اليوم".

كان قدر قدوم الشيخ المدني لكشف الستر عن الكنز المخفي (الشيخ البوزيدي), وبمجرد أن أدى هذه الرسالة, رحل تاركًا أهل المدينة ليتلقوا الفيض من إمام زمانهم. رحيله هذا هو قمة في التواضع والإنصاف, وهو ما يؤكد القول المأثور: "لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل, ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال, ولا يُجلّ العظماء إلا العظماء". هذا يعكس فهمًا عميقًا لسلسلة الأمداد الروحية, وكيف يسخر الله بعض الأولياء ليكشفوا عن مكانة الآخرين, ويُخرجوا كنوز العلم والنور من الخفاء إلى الظهور, في الوقت الذي يُؤذن فيه لهذا الظهور. إنه فعلاً حلول غيث السيول على أرض الخمول.

العودة للإرشاد العلني

هذا الاعتراف من الشيخ المدني يمثل تتويجًا لما سبق من الامتحانات العديدة التي شهدها الشيخ البوزيدي, ويُسلّط الضوء على بداية مرحلة جديدة من الظهور والانتشار لطريقته البوزيدية الدرقاوية الشاذلية بعد فترة الصمت والخمول.

فمنذ تلك الليلة, بزغ من جديد نجم الشيخ محمد البوزيدي, ما يدل على الأثر الفوري والعميق للاعتراف العلني الذي قدمه الشيخ المدني. هذا البزوغ لم يكن مجرد شهرة عابرة, بل كان تأكيدًا ربانيًا على مكانته, ما

جعل أهل الصلاح والصفاء يلتفون حوله, وتتبعه نفرٌ من أطهر وأشرف عائلات مستغانم. وهكذا جذبت دعوته النخبة الصالحة والمحترمة في المجتمع.

من الواضح أن الشيخ البوزيدي في بداية إرشاده بمستغانم, اكتفى ببضعة مريدين, معوّلاً على الخفاء وعدم الإشهار. هذا السلوك ليس من باب الضعف من ناحية الأسلوب في الدعوة, بل هو التزام عميق بمبدأ لدى العارفين بالله بأن يضبطوا حركاتهم وسكناتهم بالإذن الإلهي, وهذا يعكس فهمًا دقيقًا لمقتضيات الوقت والإذن الرباني, الذي جاء صريحًا في الرؤى النبوية السابقة.

عندما ظهرت شهرته هنا من غير التباس, كان ذلك إشارة واضحة بأن وقت الإشهار قد حان, فإدراكه لواجب شرعي وروحي في إرشاد الخلق إلى الله تعالى, لا سيا بعد تعلق الناس به, دفعه لإعادة إحياء الطريقة الدرقاوية من جديد, وهذا يُبرز أن الشيخ البوزيدي لم يكن مجرد مُتصوّف يُعلّم ولم يكن مقلدًا جامدًا, بل كان مُصلحًا ومُجددًا للطريقة في بلده, أحياها بروحه وصدقه, لا بمجرد الشكل أو الاسم. هذا التجديد هو ما منح الطريقة حياة بعد أن خبا وهجها, يعني أنه نفخ فيها روحًا جديدة تتجاوز الأطر التقليدية الجامدة.

اتساع دائرة النور

تأثير هذا النور الجديد لم يقتصر على عامة الناس, بل جذب عددًا كبيرًا من أتباع الطريقة الهبرية الدرقاوية بتلمسان, من العارفين بالله, مثل الشيخ محمد بن يلس التلمساني والمقدم العربي تْشُوار, ما يُعطي دليلًا قاطعًا على المكانة الروحية الرفيعة للشيخ البوزيدي. فاعتراف شيوخ الطرق الأخرى به وتتبعهم لطريقه يُعد شهادة على علمه, صدقه, وفرادته في عصره. شمل انتشار طريقته بلاد المغرب العربي, وخاصة في الغرب الجزائري وشمال المغرب, ما يؤكد على امتداد تأثيره الروحي والجغرافي, وتحوّل دعوته من نطاق محلي إلى نطاق أوسع.

إنها فعلا نهضة روحية قادها الشيخ البوزيدي, المقترنة بالإذن الإلهي والبصيرة والتواضع والتجديد, تحوّلت من فترة الخمول إلى انطلاق عظيم, وجذبت القلوب والعقول على حد سواء, ليُصبح الشيخ إمامًا حقيقيًا

لعصره. توّج بصبره وصدقه بإبراز النتائج العظيمة لجهده الدعوي ومقامه الروحي. تحولت دعوته من خمول وصمت إلى قوة روحية جامعة وعابرة للحدود.

بدأت بالانضمام إليه القبائل والعروش مثل بني زروال, وأولاد أحمد, والسلاطنية, والسدايرية (أو الزدايرية), وآل العتبي, بالإضافة إلى جموع غفيرة من الناس. هذا لم يكن مجرد انضمام فردي, بل كان تحوّلًا جماعيًا, حيث توحّدوا على ذكر الله فصلح بهم الزمان والمكان, مما يؤكد أن الاجتماع على ذكر الله هو أساس صلاح الأفراد والمجتمعات, وينعكس إيجابًا على واقعهم المادي والزماني. هذا التوحيد الروحي كان له أثر اجتماعي عظيم, فصارت الطريقة قوة جامعة لا مفرّقة, وهو ما يتناقض مع أي دعوات للانقسام أو التفرقة, وهذا يقودنا إلى القول بأن التصوف الأصيل يستطيع أن يجمع القلوب المختلفة تحت راية واحدة, هي ذكر الله ومعرفته.

أصداء الدعوة في بلاد الشام

الأمر الأكثر إبهارًا هو وصول أصداء الدعوة إلى بلاد الشام, وذلك بفضل جهود تلميذه البارز -والركيزة الرابعة- الشيخ محمد بن يلس الذي أذن له الشيخ البوزيدي في الدعوة والإرشاد إلى الله, كما ذكره في قوله:

بالهبري تم المراد   رقاني إلى الأوراد
ومقام الإرشاد من البوزيدي مأخوذ

هذا الامتداد الجغرافي من المغرب العربي إلى المشرق هو دليل قاطع على الإذن الربَّاني وصدق الدعوة وقوة تأثيرها ومكانة الشيخ البوزيدي العلمية. إن انتشار طريقته من المغرب إلى المشرق مثال على أنه إذا صدق المرشد في سيره, فتح الله له القلوب قبل الأبواب, والنفوس قبل الآفاق, بل هو تتويج لمسيرة مباركة, ويمثل الشيخ البوزيدي نموذج للمرشد الذي تحققت على يديه معجزات في جمع القلوب وتوحيد الصفوف, مما جعل طريقته منارة حقيقية في عصره, وامتد نورها ليشمل مناطق بعيدة.

لم يكن للشيخ البوزيدي في بداية الأمر زاوية بالمعنى الصحيح, كان الاجتماع ببيته الذي تحول إلى مركز للتربية والإرشاد والذكر. هذه البداية المتواضعة تعكس جوهر التصوف الذي لا يعتمد على الماديات بل

على الأساسيات من الأمور. كانت طبيعة الحياة الأسرية للشيخ تجعل من الصعب دائمًا أن يكون بيته مركزًا دائمًا للاجتماعات, وذلك بسبب وجود العيال وغير ذلك من شؤون البيت. هنا برز وفاء ومبادرة المريدين, الذين لم يكتفوا بالتلقي الروحي فحسب, بل نهضوا لخدمة شيخهم ودعوته. هذا التعاون يجسد العلاقة المتينة بين الشيخ ومريديه, حيث لا يرى الفقراء أنفسهم مجرد مستمعين, بل شركاء فاعلين في نشر الخير.

الزاوية البوزيدية: كرم العطاء وتفاني الخدمة

تجسد هذا التفاني في بناء الزاوية, التي أصبحت فيما بعد منارة للطريقة, وحسب بعض المصادر التي تشير بوضوح إلى الأركان الأساسية التي قامت عليها هذه الزاوية ودعوة الشيخ, فالمقدم الأول -الركيزة الثانية- ابن عودة ابن سليمان تبرع بقطعة الأرض لبناء الزاوية, وهذا يدل على كرمه ورؤيته المستقبلية لأهمية هذا المركز الروحي, ودوره هنا ليس ماديًا فقط, بل هو تجسيد للإيمان بضرورة توفير المكان المناسب للعبادة والتعليم وخاصة للذكر, ثم كانت المهمة الصعبة للمقدم الثاني -والركيزة الثالثة- أحمد ابن إسماعيل الذي تكفل ببنائها على نفقته, وما سخي به باقي المريدين. هذا يبرز جانبًا آخر من العطاء المالي الخالص لوجه الله, ويؤكد على وجود أيادٍ سخية دعمت مسيرة الشيخ, ثم المقدم الأول أحمد بن عليوة (العلاوي) -والركيزة الأولى- الذي قام بخدمة الشيخ, وهذا الدور شديد الأهمية, فخدمة الشيخ ليست مجرد خدمة شخصية, بل هي خدمة للعلم والطريقة, وتأهيل للتلميذ ليكون خير خلف لخير سلف. هذا يُظهر أيضًا العلاقة الوثيقة والخاصة بين الشيخ البوزيدي وتلميذه الأبرز.

الركائز الأربعة

هؤلاء الأربعة (محمد بن يلس, ابن عودة بن سليمان, أحمد بن إسماعيل, وأحمد بن عليوة) هم الركائز الأربعة للطريقة البوزيدية, هذه التسمية تؤكد على أهمية الأدوار المتكاملة في بناء أي حركة روحية أو دعوية. فلكل ركن دوره الذي لا يقل أهمية عن الآخر: منهم من يوفر المكان, ومنهم من يدعم بالمال, ومنهم من يخدم ويهيئ للقيادة المستقبلية, ومنهم من ينشر الدعوة إلى آفاق بعيدة ويهيئها لاستقبال دعوة أكبر. هذا

التنظيم والتفاني في بناء الزاوية, وتحديد الركائز, يعكس نمو الطريقة البوزيدية من مجرد تجمع حول شخص إلى مؤسسة روحية راسخة, قادرة على الاستمرارية والعطاء.

طريقة الشيخ البوزيدي في السلوك

أما عن الطريقة التي كان يسلكها الشيخ البوزيدي في توجيه مريديه من مرحلة إلى أخرى, فكانت تختلف باختلاف المريدين, فمنهم من يتكلم معه في صورة آدم, ومنهم من كان يتكلم معه في صفات المعاني, ومنهم من كان يتكلم معه في الأفعال الإلهية, وكل كلام بكيفية تخصه.

أما السير الغالب الذي كان يعتمده, فهو أن يُكلف المريد بذكر الاسم المُفرد مع تشخيص حُروفه, حتى ترتسم -أعني الحروف- في مُخيلته, ثم يأمره ببسطها وتعظيمها إلى أن تملأ الحروف ما بين الخافقين, ويُديم الذكر على تلك الهيئة إلى أن تنقلب صفاتها إلى شبه النور, ثم يُشير له بالخروج عن هذا المظهر بكيفية يتعذر التصريح بها, فينتهي روح المُريد بسرعة مع تلك الإشارة إلى خارج الكون مالم يكن المريد قليل الاستعداد, وإلا احتيج إلى تصفية وترويض.

عند تلك الإشارة يقع للمريد التمييز بين الإطلاق والتقييد, ويظهر له هذا الوجود مثل الكرة أو القنديل, معلقاً في فراغ معدوم البداية والنهاية, ثم يصير يضعف في نظره مع ملازمة الذكر, ومصاحبة الفكر, إلى أن يصير أثراً بعد عين, ثم يصير لا أثر ولا عين, ويبقى على تلك الحالة حتى يستغرق المريد في عالم الإطلاق, ويتمكن يقينه من ذلك النور المجرد, والشيخ في كل ذلك يتعهده ويسأله عن أحواله, ويُقويه على الذكر حسب المراتب, حتى ينتهي إلى غاية يشعر بها المريد من نفسه ولا يكتفي منه إلا بذلك.

وكان, رضي الله عنه, دائماً يتلو قوله تعالى "أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ" (هود: 17), فإذا تمت غاية المريد في هذا المشهد حسب المشارب من قوة وضعف, يرجع به إلى عالم الشهادة, بعد الخروج عنه, فينقلب في نظره على خلاف ما كان عليه, وما ذلك إلا لإشراق بصيرته, وكيفما كان لا يراه إلا نوراً على نور, وكذلك كان من قبل, وفي هذا المقام قد يختلط على المريد الحابل بالنابل, فيقول كما قال غير واحد "أنا من أهوى ومن أهوى أنا", وما هو من هذا القبيل... فينتقده من لا خبرة له بعلم القوم وشطحاتهم

بما شاء من الانتقاد, ولكن لا يبعد صاحب هذا المقام أن يتلوه التمييز بين المشاهد, فيصير يُعطي المراتب حقها, ويُوفي المقامات قسطها.

علم القوم (علم الحقيقة)

أما عن علم القوم, فقد عبّر عنه بقوله: "العالم اللامتناهي, أو عالم الإطلاق, الذي نتصوره خارجيًا عنا, هو في الحقيقة كوني, ويوجد كما هو بداخلنا وخارجنا على حد سواء. لا يوجد إلا عالم واحد: وهو هذا. أما العالم الحسِّي, العالم المحدود والزمني, فليس إلا مجموعة من الحجب التي تخفي العالم الحقيقي. وهذه الحجب هي حواسّنا نفسها, التي لا تعطينا رؤية دقيقة للأشياء, بل على العكس, تمنع وتحدّ من الإدراك الكامل. فأعيننا هي حجاب عن البصر الحقيقي, وآذاننا حجاب عن السمع الحقيقي, وكذلك باقي الحواس.

ولكي نُدرك وجود العالم الحقيقي, يجب أن نُزيل هذه الحجب - أي الحواس - ونعطلها تمامًا: نغلق الأعين, نسدّ الآذان, ونتجرّد من الذوق والشم واللمس. فما الذي يتبقى للإنسان؟ يتبقى بريق خفيف يبدو له كصفاء وعيه. هذا البريق ضعيف جدًا بسبب الحجب التي تحيط به, لكنه متصل اتصالًا تامًا بالنور العظيم لعالم الإطلاق. وفي هذا البريق تتركّز إدراكات القلب, والروح, والعقل, والفكر.

والذكر باسم "الله", الاسم المطلق, هو بمثابة حركة الذهاب والإياب -المد والجزر- التي تؤكد التواصل المتزايد حتى الوصول إلى التماهي بين بريق الوعي والومضات الساطعة للمطلق. وحين يُدرك هذه الاستمرارية, يمكن لوعينا من خلال الذكر أن ينصهر في عالم الإطلاق, ويتّحد به إلى الحد الذي يُدرك فيه الإنسان أنه لا وجود إلا عالم الإطلاق, وأنه - أي الإنسان الواعي - لا وجود له إلا كحجاب.

وحين يتحقق هذا المقام, يمكن لأنوار الحياة الأزلية أن تنفذ إلى روح الصوفي, وتجعله يساهم في الحياة الإلهية, وعندها يجدر له أن يهتف: "(نور) الله فيّ"!

أما العمل الذي يبقى على العارف بعد ذلك ملازمته, فهو دقيق للغاية, رقيق لدرجة أنه من الضروري أن يكون الفكر متجرداً من كل أنواع الشواغل وأن يبقى القلب فارغاً تمامًا. (انتهى كلامه, رضي الله عنه).

التخلية قبل التحلية

كان الشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, يقول: "خير للمريد أن ينشغل بتطهير قلبه قبل أن يتلقى نور ربه, حتى يُشرق قلبه بنور الله, فعندئذ فقط, يعرف معنى التوحيد".

هذا القول الموجز والمحكم للشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, يُلخص مبدأً أساسيًا وجوهريًا في التصوف والسلوك إلى الله: "التخلية قبل التحلية", حيث يضع الشيخ الأولوية للعمل الباطني والتنقية الذاتية. فتطهير القلب هنا لا يعني مجرد التوبة من الذنوب الظاهرة, بل يشمل تصفية القلب من كل ما سوى الله من علائق الدنيا, وحب الشهوات, والركون إلى الذات, وخبائث الأخلاق كالحسد والكبر. هذا التطهير هو شرط أساسي ومقدمة ضرورية لاستقبال الفيض الإلهي. القلب الذي لم يُطهر بعد يكون أشبه بوعاء مملوء بالشوائب, لا يمكن لنور الله أن يسكن فيه ويستقر. تأتي العبارة الاصطلاحية الصوفية "التخلية قبل التحلية" لتشرح هذا المعنى بدقة, فالتخلية هي إفراغ القلب وتجريده من كل الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة والتعلق بغير الله. إنها عملية إزالة الحجب والشوائب. أما التحلية فهي ملء القلب بعد التخلية بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة, والأهم من ذلك, بنور المعرفة الإلهية, والتوحيد الخالص, والمحبة الصادقة لله. ثم يختم الشيخ قوله بالنتيجة المترتبة على هذا المنهج "فعندئذ فقط, يعرف معنى التوحيد". هذا يعني أن المعنى الحقيقي للتوحيد ليس مجرد إقرار عقلي بوجود الله ووحدانيته, بل هو تجربة روحية عميقة تُشرق في القلب بعد تطهيره. عندها, يُدرك المريد أن الوجود الحق لله وحده, وأن كل ما سواه فناء. هذا الإدراك هو ثمرة التخلية والتحلية, وهو يمثل الهدف الأسمى للسير الصوفي.

هذا القول للشيخ البوزيدي هو خارطة طريق للمريد, تؤكد على أن الوصول إلى نور المعرفة الإلهية والتوحيد الخالص يتطلب جهدًا باطنيًا مسبقًا لتطهير القلب وإعداده لاستقبال الفيض الرباني.

الأولوية في السلوك

كان يقول أيضًا: "من الأفضل للمريد ألا يتعلَّم العلم وخاصة الفقه, حتى يُشرق قلبه بنور الله, لأن الواجب يقتضي تقديم الأهم على المهم".

هذا القول للشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, يطرح مبدأً دقيقًا في سلم الأولويات لدى المريد السالك, وقد يبدو للوهلة الأولى مثيرًا للنقاش, لكنه يمثل رؤية باطنية عميقة. الشيخ هنا لا يقلل من شأن العلم الشرعي أو الفقه؛ فالعلم نور, والفقه فهم للشريعة. لكنه يضع شرطًا وأولوية في الترتيب الزمني للسلوك. لماذا هذا التفضيل؟ لأن الواجب يقتضي تقديم الأهم على المهم. في منطق العلم الباطني الذي يعتمده الشيخ, "الأهم" هو تطهير القلب وإشراقه بنور الله. هذا الإشراق هو الذي يمنح المريد البصيرة الحقيقية والفهم الصحيح للعلوم. القلب النقي المشرق بالنور الإلهي يصبح وعاءً مهيئًا لاستقبال العلم واستيعابه على حقيقته, بعيدًا عن الجدل النظري أو التعصب المذهبي الذي قد ينشأ من تعلم الفقه قبل ترسيخ الإيمان القلبي. عندما يُشرق القلب بنور الله, يكون فهم المريد للفقه والعلم أعمق وأكثر حكمة, لأنه ينطلق من معرفة روحية وليس مجرد معرفة عقلية. هذا الفهم المشرق يجعل العلم خادمًا للقلب, ووسيلة لتقوية الصلة بالله, لا غاية بحد ذاته قد تؤدي إلى الانشغال بالظاهر عن الباطن. هذا المبدأ يؤكد أن أساس السلوك هو القلب, وأن تنويره مقدم على التفاصيل الفقهية التي قد تشتت المريد أو توقعَه في متاهات الجدل إذا لم يكن قلبه محصنًا بالنور الإلهي. هو دعوة إلى التركيز على الجوهر قبل القشور, وعلى تزكية الباطن قبل التوسع في الظاهر.

منهج الشيخ البوزيدي: أقرب المسالك إلى الله

يقول الشيخ العلاوي, رضي الله عنه, حول هذا المنهج: "مسلك أستاذنا رضي الله عنه, هو الذي اعتمدناه في طريقنا, وسيَّرنا عليه أكثر أتباعنا, بما أنّا وجدناه أقرب المسالك في طريق السير إلى الله".

هذا القول للشيخ العلاوي, تلميذ الشيخ البوزيدي وخليفته البارز, يُسلّط الضوء على المنهج الذي اعتمده الشيخ البوزيدي ويُعد شهادة قوية على فعاليته ونجاعته الروحية. تأكيد الشيخ العلاوي أن مسلك الشيخ البوزيدي رضي الله عنه, هو الذي اعتمده في طريقته (العلاوية), وسيَّر عليه أكثر أتباعه ليس مجرد اعتراف بفضل الأستاذ على التلميذ, بل هو إعلان عن استمرارية المنهج وتأصيل له. هذا يعني أن الطريقة العلاوية التي حمل الشيخ العلاوي رايتها هي امتداد مباشر للطريقة البوزيدية في جوهرها وأسسها. اختيار أكثر الأتباع لهذا المسلك يُشير إلى أنه منهج عملي ومناسب لعدد كبير من السالكين, مما يجعله ذو قابلية للتطبيق والتأثير الواسع.

العبارة المفتاحية "أقرب المسالك في طريق السير إلى الله" تُعد خلاصة تقييم روحي عميق من قبل عارفٍ بالله كالشيخ العلاوي. فأقرب المسالك تعني أنه المنهج الأكثر فاعلية, والأسرع وصولًا, والأقل تعقيدًا في رحلة السير إلى الله تعالى. هذا لا يعني بالضرورة أنه الأسهل من حيث المجاهدة, بل ربما الأنجع من حيث النتائج الروحية والفناء في الحق, خاصة بعد ما تبين لنا من منهج الشيخ البوزيدي في استخدام الذكر كأداة للفناء والبقاء. هذا يعكس ثقة راسخة في منهج الشيخ البوزيدي, ويُقدمه كنموذج للمرشد الذي امتلك مفتاح الوصول إلى الله, وورث هذا المفتاح لتلاميذه ليسيروا به على نفس الدرب.

﴿ الفصل السادس: أحواله, أخلاقه, كراماته ﴾

طبيب الأرواح والأجساد

هناك جانب آخر من جوانب عظمة الشيخ محمد البوزيدي, رضي الله عنه, وهو من مزاياه الأخلاقية الرفيعة وقدراته الشفائية التي جمعت بين الظاهر والباطن. يتميّز الشيخ البوزيدي بأخلاق محمدية ربانية رفيعة في أتم المعنى. تلك الأخلاق المستمدة من النبع النبوي الشريف, والمتصلة بالذات الإلهية, ما جعلها تتجاوز مجرد الكمال البشري إلى درجة السمو. هذه الأخلاق كانت الأساس الذي بنى عليه مكانته كطبيب للأرواح, وهو الدور الأساسي للمربي الصوفي الذي يعالج أمراض القلوب من الغفلة والشوائب. لكن هناك بعدًا آخر, كان أيضًا طبيب الأجساد. وهنا تكمن خصوصيته في معالجة من ابتلوا بصرع الجان. الأمر لا يقتصر على الرقية الشرعية (العلم الظاهر), بل يتعداه إلى سر الباطن. هذا السر هو الفيض الإلهي الذي يُمنح للأولياء, والذي يمكّنهم من التصرف في الأكوان بإذن الله, ليس بقوتهم الذاتية, بل بمدد رباني.

كان يزور المصاب بريح الجان, فلا يستقر به الجلوس حتى يظهر فضل الله على المريض, مما يوحي بتأثير فوري وقوي لحضوره وبركته, لدرجة أن الشفاء كان يحدث سريعًا وبشكل ملحوظ, مما أدى إلى شهرته الواسعة بين العامة وقصدهم له من كل مكان لدفع البلوى. هذا يؤكد على الشخصية الروحية القوية للشيخ وقدرته على شفاء الأمراض التي تُعجز الطب الرسمي.

فكان رضي الله عنه, المربي الكامل يعالج القلوب ويشفي الأجسام, ويجمع بما فتح الله عليه من أسرار. جمع الشيخ هذه الخصوصيات في كونه مربيًا روحيًا ومعالجًا جسديًا, مستندًا إلى الأسرار الإلهية التي فُتحت عليه.

يُقدم الشيخ العلاوي, تلميذ البوزيدي النجيب, شهادة شخصية تُبين كيف سمع عن أستاذه لأول مرة. ففي صباه, عندما أصابه مرض, جيء إليه برقية وقيل له: "هذا من عند سيدي حمو الشيخ". استعملها فعوفي بإذن الله. هذه الشهادة مهمة لعدة أسباب منها: تُظهر أن فضل الشيخ البوزيدي كان معروفًا وملموسًا

حتى قبل لقائه بالشيخ العلاوي, وأن بركته كانت تنتقل عبر وسائط مثل الرقية. تُعزز فكرة أن العلاقة بين الشيخ البوزيدي والعلاوي كانت مقدرة إلهيًا, وأن جذورها تمتد إلى مرحلة مبكرة من حياة الشيخ العلاوي نفسه, حيث كان الشفاء هو أول بوابة لتعرفه على فيض الشيخ.

بشكل عام, هذا الوصف يرسم صورة لوليٍ جامع بين العلم الظاهر وسر الباطن, بين التربية الروحية والشفاء الجسدي, وأن تأثيره كان عميقًا وممتدًا, بدءًا من شفاء الأفراد وصولًا إلى جذب القلوب والأرواح.

الشيخ والجان: خصوصية ومقام رفيع

ومن خصوصيته, رضي الله عنه, أن تشهد له العوالم الخفيَّة بمكانته الروحية, فالجان كان يتبرَّك به ويعتمده ويأخذ عنه الطريق ويبجله أكثر ممَّا يحترمه الناس, ويزوره في مدينة مستغانم عند الحاجات الخاصة والمهمّات العظيمة. فتبرُّك الجان به وأَخْذِه عنه الطريق ليست من قَبِيل العجب, بل هي إشارة رمزية إلى أنَّ نورَه تجاوز حدود الإنس, فأثّر في عالم الجان, لرفيع مَقامِه وتجلّي سرِّ عنوانه.

السر الإلهي الذي تجلى في الشيخ البوزيدي كان من القوة بحيث تجاوز الحواجز الحسية والوجودية, ليؤثر في كائنات من طبيعة مختلفة كالجان, ممن يمتلكون قوة إدراكية وعقلانية تمكنهم من تمييز مقام الأولياء. زيارتهم له في مستغانم عند الحاجات الخاصة والمهمات العظيمة, تؤكد على اعتقادهم بقدرته الروحية على حل المسائل المعقدة, تماماً كما يفعل الإنس.

العقل المشترك وعمر الجان

بين الإنس والجان قدر مشترك من حيث الاتِّصاف بصفة العقل والإدراك, ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر, وهذا القدر المشترك هو ما يفسر إمكانية التأثر والانتفاع الروحي المتبادل. وبما أن الجان يُعَمِّرون أكثر من الإنسان بآلاف السنين, فلا بد من وجود في عصرنا هذا مَن أخَذ عن الشيخ البوزيدي مباشرة, وهذا يفتح الباب أمام تأثير روحي ممتد عبر الأزمان, حيث يمكن أن يكون للشيخ أتباع من الجان يعيشون لقرون, مما يضمن استمرارية فيضه بشكل يتجاوز الأعمار البشرية المحدودة, والله أعلم.

شهاداته وتجاربه مع الجان

أخبر الشيخ البوزيدي بذلك وبمن أخذ عنه، وبأسامي البعض من الجان، وبما وقع له معهم في بعض الأحيان. يكشف لنا عن جانب فريد ومميز للغاية من خصوصيات الشيخ محمد البوزيدي، رضي الله عنه، وهو تجاوز تأثيره الروحي لعالم الإنس ليشمل عالم الجان. هذه ليست مجرد إضافة عادية لسيرته، بل هي دليل على مقام روحي استثنائي ومستوى عالٍ من التجلي الرباني.

الجان تقتدي بالشيخ

ومن جملة ذلك أنَّه قال رضي الله عنه: "كنت مرَّة في سياحة بالمغرب الأقصى في أرضٍ قفرٍ، فدخل عليَّ وقت العصر، فقمت وأذنت ثم أقمت الصلاة، وعندما فرغت، التفتُّ خلفي، وإذا بأناس كثيرة يصلُّون من ورائي، وكلهم يسبِّح مثل تسبيحي، فأوجست منهم خيفةً، وعلمت أن القوم ليسوا من جنسي، فتقدَّم لي أحدهم وكنتُ أعرفه، فقال لي: "لا تتروَّع يا سيدي محمَّد، إنَّ القوم من إخوانك يريدون الاستماع إلى كلامك"، فعند ذلك تكلمت في الطريق بما فتح الله عليَّ، وبعد ساعة تفرَّق الجميع...

وعندما ذهبت للشيخ (محمَّد بن قدور) رضي الله عنه، أخبرته بذلك، فقال لي: "لنا من جنس الجان أتباع كثيرة"، ثمَّ صار يعرِّفني بهم وبأسمائهم حالَ اجتماعهم مع الفقراء عند الذكر، فكنت أعرفهم". (اهـ)

فيما يخص هذه الشهادة المباشرة للشيخ البوزيدي نفسه حول تعامله مع الجان، ما يضيف مصداقية لخصوصيته، وهي صلاة الجان خلفه في المغرب "الأقصى". هذا الموقف يظهر احترام الجان له ورغبتهم في التلقي عنه، ويؤكد على أنهم كانوا من "إخوانه" أي من أتباع الطريقة. كلامه يبرز أن دعوته كانت موجهة حتى لغير الإنس. وعندما أخبر شيخه محمد بن قدور بذلك، أكد له الأخير أن له أتباع كثيرة منهم، بل وعرفه ببعضهم أثناء الذكر، ما يدل على عمق الصلة بين هؤلاء الشيوخ والعالم الخفي.

حادثة عفريت المسجد

يقول الشيخ البوزيدي رضي الله عنه: "عندما انتقلت إلى مستغانم كان الجان يزورني وخصوصا عند المهمَّات، ويحترمني ويبجلني أكثر ممَّا يحترمني جنس الإنس، ولم يقصدني بسوء غير واحد منهم مرَّة، فإنه

أراد إذايتي, وقد عصمني الله منه, وذلك أنِّي كنت بالمغرب سائحا في أرض قفر, أنا ورفيق لي, وبتنا في مسجد غير مسكون, وعندما انتصف الليل سألني رفيقي عن الحجاب الذي بيننا وبين الجانّْ, وقال لي: "إنَّ الجانَّ من المحسوسات ولا ندركه بالحواس", فأخذت أبيِّن له في ذلك قائلا: "المانع من إدراكهم بالبصر هو رمش العين, ولو فتح الإنسان بصره لحصَّل على رؤية الجانّْ". فصار ينظر في كفِّه ولا يرمش إلى أن صار لا يرى شيئا, وعندما انفتح بصره حصَّل على رؤية الجان, فإذا بعفريت ضاق به المسجد يريد الهجوم عليَّ قائلا: "لم تجد كلاما غير هذا؟ أتريد أنّْ تفضح ما ستر الله؟", وأقبل عليَّ ليفترسني, وإذا بنداء في أذني من أستاذي سيدي محمَّد بن قدور يقول: "عليك بسورة الإخلاص, وأشر عليه بيمينك ولا تفتر", وكان بيني وبين الأستاذ مسيرة يومين, ففعلت ما أمرني, وإذا به يرتد ويصعد وينزل إلى أن صار مثل الدخان, ثم تخلى عن المسجد قائلا: "لا خير في مكان أنت فيه", وعندما التفت لرفيقي وجذته مغشيا عليه, فقرأت عليه ما تيسر من كتاب الله, فأفاق من غشيته.

وعندما ذهبنا إلى الشيخ رضي الله عنه أخبرني بما وقع لي, وقال لي: "قد عصمك الله منه", فقلت له: "يا سيدي, لولا فضلك وبركات ندائك لافترسني, ولكن الحمد لله". وعليه فهذا هو الوحيد الذي أراد بي سوءً, وأمَّا بعين الجمع فالله يجازيهم خيرا, فإن الجان يحترمني غاية الاحترام". (انتهى كلامه, رضي الله عنه). الحق ما قاله رضي الله عنه, كان يشهد له بذلك الخاص والعام.

هذا الموقف يكشف عن خطورة الخوض في هذه العوالم دون إذن أو حماية. لكن الأهم هو نجاة الشيخ ببركة أستاذه سيدي محمد بن قدور, الذي ناداه في أذنه من مسيرة يومين. استجابة الشيخ الفورية لهذا التوجيه النبوي (لسورة الإخلاص) والبركة الروحية لأستاذه, جعلت العفريت يرتد ويتحول إلى "دخان" ثم يغادر المكان. هذا يدل على قوة السر الإلهي في حماية الأولياء, وعلى أن بركة الأستاذ تتجاوز المسافات. ثم إنَّ إغماء رفيقه يؤكد على هول الموقف وضعف البشر العاديين أمام هذه التجارب. وعندما أخبر الشيخ أستاذه, أكد له الأستاذ أن الله عصمه, وأقر البوزيدي بفضل أستاذه: "لولا فضلك وبركات ندائك لافترسني".

ثم يختم الشيخ البوزيدي كلامه: "هو الوحيد الذي أراد بي سوءًا, وأما بعين الجمع فالله يجازيهم خيراً, فإن الجان يحترمني غاية الاحترام". هذا يدل على أن العداوة كانت استثنائية, وأن الغالب في علاقة الشيخ بالجان هو التبجيل والتقدير, أمَّا جان مسجد وردانة, فقد نال جزائه لظلمه معلمي القرآن. ويختتم الكاتب (الشيخ العلاوي) بالتأكيد على صدق ما قاله الشيخ البوزيدي.

بشكل عام, هذه الخصوصية للشيخ البوزيدي ليست خارقة فحسب, بل تؤسس لدليل على عمق الولاية ومقام الشيخ الفريد, حيث تتجلى قدراته الروحية لتلامس عوالم تتجاوز الإدراك البشري العادي, وتُبرز كيف أن الأولياء هم حلقة وصل بين العوالم, وأن سرهم ينبع من اتصالهم العميق بالله وبركة مشايخهم.

الفتح على يده قريب

إن خصوصية الشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, كانت تلوح عليه, بحيث انتفع به كل من انتمى إليه ولزمه في أقرب وقت, حتى كان الناس يتعجبون ممَّا طرأ على يديه من الفتح القريب والسرِّ العجيب الذي ظهر على تلامذته. وقد كان الفتح الإلهي على يده قريبًا وميسّرا, حيث فتح الله على يده على كثيرٍ من خلقِه.

يُبرز هذا جانباً جوهرياً ومذهلاً في شخصية ومنهج الشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, ألا وهو السرعة واليسر الاستثنائيان في الفتح الروحي الذي كان يشهده كل من ارتبط به. لقد كانت هذه الخصوصية واضحة للعيان, لدرجة أن الناس كانوا يتعجبون مما طرأ على يديه على تلامذته. هذا "الفتح القريب" ليس مجرد تقدم بطيء في السلوك, بل هو قفزة نوعية في المقام الروحي تحدث في أقرب وقت بمجرد الانتماء للشيخ ولزومه. إنها هبة إلهية خالصة, حيث "فتح الله على يده على كثير من خلقه", مما يدل على أن الشيخ كان باباً مفتوحاً للوصول إلى الفيض الإلهي, وأن بركته كانت تنساب بغزارة على كل من اتصل به بصدق. هذه الميزة لم تكن معهودة بالضرورة في مسالك التصوف الأخرى التي قد تتطلب سنوات طويلة من المجاهدة الشاقة لتحقيق مقامات مشابهة.

رضا الشيخ: مفتاح الفتح السريع والكرامة الربانية

فقد كان الشيخ البوزيدي, رضي الله عنه ليس بينه وبين المريد إلا أن يرضى عليه. حين ارتبط به مريدوه الجدد بمستغانم, لم فيهم من قابلية الطريق إلا مجرد المحبة, فما مرت عليهم أيام إلا وصاروا في مقام يُعجز عن وصفه, بدون استعداد منهم لذلك.

يُفصّل هذا جانباً جوهرياً في خصوصية الشيخ البوزيدي في قوة فيضه الروحي التي تجعل رضا الشيخ كافياً لفتح الأبواب للمريد. لم يكن بين الشيخ ومريده "إلا أن يرضى عليه"؛ هذه العبارة البسيطة تُشير إلى سر عظيم يختص به الأولياء الكُمّل, حيث يكون رضاهم بمثابة إذن إلهي يفتح القلب ويُعدّه لاستقبال الفيض.

عندما ارتبط مريدوه الجدد به في مستغانم, لم يكونوا يمتلكون من الاستعدادات التقليدية للطريق سوى مجرد المحبة. هذه المحبة الصادقة كانت هي الرأسمال الأوحد الذي قدموه, لكن النتيجة كانت مذهلة. هذا التحول السريع, الذي يحدث دون سابق مجاهدات شاقة من المريد, يؤكد أن الفتح كان هبةً ربانيةً خالصةً تجلت ببركة الشيخ وفضله, لا باستحقاق ذاتي من المريدين.

تواضع الشيخ وكرمه الروحي

وقد قال له مرة الشيخ العلاوي, تلميذه النجيب: "جزاك الله خيرا يا سيدي, فإنك أكرمتنا بما لسنا له أهلا". فقال له الشيخ: "أنتم جزاكم الله خيرا, حيث أتيتمونا, فوالله لو تلاقينا بمن لا يحسن الشهادة, لعلّمناه بما علّمناكم بدون شعور".

شكر الشيخ العلاوي لشيخه هو اعتراف صريح بالتفضل الإلهي الذي جاء على يد الشيخ. إنه يقر بأن ما نالوه من مقامات روحية كان عطاءً فاق استحقاقهم وقابليتهم. رد الشيخ البوزيدي كان في قمة التواضع والكرم الروحي. هذا الرد يحمل دلالات عميقة, حيث ينسب الشيخ الفضل لقدوم المريدين إليه, بدلاً من أن ينسبه لنفسهو ثم تأكيده على قدرته على تعليم من لا يحسن الشهادة (أي من هو في أدنى مراتب الإدراك أو من ليس لديه أي استعداد روحي مسبق) بنفس الفتوحات التي منحها للمريدين الأكثر استعداداً, دون عناء أو جهد ملحوظ من جانبهم. هذا يُبرز أن قوة فيضه كانت كافية لإحداث التحول الجذري في الأرواح, مهما كانت حالتها الابتدائية.

هذا يرسم صورة لشيخ كريم معطاء روحيًا, لا يُقيّد الفيض بشروط مسبقة معقدة من المريدين, بل يفتحه لمن أقبل عليه بالمحبة, ببركة ربانية خاصة مُنحت له.

منهج الشيخ في السلوك لآخر الزمان

وكان يقول: "إن الطريق كانت طويلة وشاقة, وقد اختصرناها إلى أن صارت مقتصِرة على الانتساب للطريق... وشيء من المحبة" أو ما في معنى هذا القول.

يُقدم هذا القول للشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, رؤية ثاقبة حول طبيعة السلوك إلى الله في عصره, والمنهج الاستثنائي الذي جاء به إلى أن صارت مقتصرة على الانتساب للطريق وشيء من المحبة. هذه الكلمات تحمل دلالة عظيمة, ففي حين كانت الطرق الصوفية التقليدية تتطلب غالبًا سنوات طويلة من المجاهدات الشاقة, الرياضات الروحية, والخلوات العميقة للوصول إلى الفتح والمعرفة, يُعلن الشيخ البوزيدي هنا عن منحة إلهية خاصة اختصرت هذه المسافة. هذا الاختصار لا يعني التخلي عن الجدية, بل يعني أن الفيض والبركة في طريقته كانا من القوة بحيث أصبحا يُحدِثان التحول الروحي بجهد أقل من المريد.

إن التركيز على "الانتساب للطريق وشيء من المحبة, يُشير إلى أن المفتاح الأساسي في منهجه هو الانتساب الصادق أي الانضمام والولاء للطريقة والشيخ, وهو ما يفتح باب الفيض الإلهي, ثم تأتي المحبة, وهي ليست مجرد عاطفة, بل هي رابط روحي عميق يربط المريد بالشيخ وبالطريق, وهذا الحب هو الذي يُذيب حجب الذات ويُعد القلب لاستقبال الأنوار. هذا المنهج يتناسب مع طبيعة آخر الزمان, حيث قد تقل الهمم وتشتد الفتن, فيكون هناك حاجة ماسة لطرق ميسرة توصل العباد إلى ربهم. قول الشيخ هذا يرسخ مكانته كمجدد للطريق, جاء بمنهج يراعي ظروف العصر ويسهّل السلوك دون المساس بجوهر الوصول.

خصوصية الطريقة البوزيدية في آخر الزمان

وكان يقول: "لا يكون الفتح القريب في آخر الزمان ولا النفحة الكلِّيَّة إلا في طريقتي ومن تلامذتي", (وعلَّق الشيخ العلاوي, رضي الله عنه, قائلا): "والأمر والله كما قال".

هذا القول للشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, يُعتبر إعلاناً روحياً ذا دلالة عظيمة, فهو يحدد بوضوح مكانة طريقته في سياق العصور المتأخرة, وُيشير إلى حصريّة نوعين من العطاء الإلهي لطريقته في آخر الزمان. الفتح القريب وهو الفتح الروحي السريع والميسّر الذي سبق الحديث عنه, والذي لا يتطلب سنوات طويلة من المجاهدة. أمَّا النفحة الكُلِّيَّة وهي الفيض الإلهي الشامل والعام الذي يؤثر في كل جوانب الوجود الروحي للمريد, ويُمكنه من إدراك الحقائق الكبرى بشكل كلي. هذا التأكيد على أن هذين النوعين من الفتح والفيض لن يكونا إلا في طريقته ومن تلامذته هو تصريحٌ جريءٌ ورفيعٌ لمقام الشيخ البوزيدي وطريقته. إنه يُبرز أن طريقته هي قناة إلهية خاصة اختارها الله لتُوصل العباد إليه في زمن قد تضعف فيه الهمم وتكثر الحجب.

تأتي شهادة الشيخ العلاوي, رضي الله عنه, لتُعزز هذا القول وتُضفي عليه مزيداً من الصدق والمصداقية. هذه الكلمات ليست مجرد ترديد, بل هي إقرار من تلميذ نجيب وعارفٍ محقق عاش التجربة بنفسه وشهد تحقق هذا الفتح والنفحة على يد أستاذه وفيمن اتبعه. شهادة العلاوي, وهو من عمالقة التصوف الذين ذاع صيتهم, تُعد برهانًا عمليًا على صحة مقال الشيخ البوزيدي. هذا يُقدم, صراحة, الطريقة البوزيدية على أنها منارة إلهية خاصة لآخر الزمان, حيث يجد فيها السالكون سهولة في الوصول وكمالاً في الفيض, بفضل السر المودع في شيخها وتلامذتها.

شهادة الواقع: الأربعون سالكًا وتفرد العلاوي

وممَّا يدل على صحة مقاله أنَّه سلك على يده نحو الأربعين رجلا, منهم من انتقل في حياته, ومنهم من تخلَّف بعده, ولم يتصدر منهم أحدًا للإرشاد إلا الشيخ العلاوي, رضي الله عنه.

هذا المولج يأتيه بمثابة البرهان العملي على صدق ما قاله الشيخ البوزيدي حول خصوصية طريقته وفعالية "الفتح القريب" و"النفحة الكلية" فيها. فقوله: "ومما يدل على صحة مقاله أنَّه سلك على يده نحو الأربعين رجلاً" يُقدم دليلاً كميًا على عدد السالكين الذين انخرطوا في طريقته وحققوا الفتح على يديه. أربعون رجلاً في زمن لم تكن فيه وسائل التواصل سهلة هو عدد لا يستهان به, ويشير إلى قوة الجذب الروحي للشيخ. الجزء الآخر من النص يحمل دلالة أعمق: "منهم من انتقل في حياته, ومنهم من تخلف بعده, ولم يتصدر

منهم أحدًا للإرشاد إلا الشيخ العلاوي". هذا يُشير إلى عدة نقاط مهمة منها الفتح الروحي يسع للكل, لكن مهمة الإرشاد اصطفاء. ليس كل من سلك الطريق وفتح عليه صار شيخًا مرشدًا. فمع أن الفتح كان ميسرًا لكثيرين, إلا أن مقام التصدر للإرشاد هو مرتبة عليا لا يبلغها إلا من اصطفاه الله وأهّله للقيادة الروحية. هذا يُبين أن هناك فرقًا بين الفتح كتجربة شخصية والإرشاد كمسؤولية جماعية تتطلب شروطًا إضافية.

تلامذة الشيخ منهم من انتقل في حياته, ومنهم من تخلف بعده, تعني أن بعضهم توفي أثناء حياة الشيخ, وبعضهم بقي بعد وفاته. ولكن الأهم هو أن الشيخ العلاوي كان هو الوارث الروحي الحقيقي والوحيد الذي تصدّر للإرشاد من بين الأربعين. هذا يؤكد على المكانة الفريدة والخاصة للشيخ العلاوي كحامل لسر الشيخ البوزيدي وخليفته المطلق وهو المعني بـ "السرِّ الغريب". إنها شهادة ضمنية من الشيخ العلاوي نفسه (عبر الواقع الذي تحقق) على أنه هو الأجدر بحمل الأمانة وإكمال المسيرة.

هذا يُقدم برهانًا ملموسًا على نجاح منهج الشيخ البوزيدي في إيصال السالكين إلى الفتح الروحي, ويُبرز في الوقت نفسه التفرد الروحي للشيخ العلاوي كوارث حقيقي وخليفة أمين لمنهج أستاذه.

الفتح في زمن الوعورة

ظهر الفتح على يديه لمَّا توعَّرت المسالك عن غيره, فمنهم من استغربه بقوله: "ذهب الفتح مع أهله", وأن "الخير لا يوجد في هذا الزمان" (إلخ...), ومنهم من أنكره بقوله: "إنَّ الفتح متعذرٌ في زمننا هذا".

يسلِّط القائل (الشيخ العلاوي) الضوء على موقف الشيخ الفريد من إمكانية الفتح الروحي في عصره, في مواجهة التيار السائد من اليأس والإنكار. لقد "ظهر الفتح على يديه لما توعَّرت المسالك عن غيره", فهذه العبارة جوهرية, فهي تُشير إلى أن زمن الشيخ البوزيدي كان يتميز بصعوبة المسالك الروحية وتعذر الوصول إلى الفتح بالطرق المعتادة أو عند غيره من المشايخ. كان هناك اعتقاد سائد لدى البعض بأنه ذهب الفتح مع أهله وأن الخير لم يعد يوجد في هذا الزمان, بينما ذهب آخرون إلى حد إنكار إمكانية الفتح تماماً في عصرهم. هذه الأقوال تعكس إحساساً بالانقطاع الروحي ووعورة الطريق في أواخر الأزمنة.

رد الشيخ على اليائس

على النقيض من هذه النظرة التشاؤمية, يأتي رد الشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, ليكون إعلاناً قوياً عن الخصوصية الإلهية التي مُنحت لطريقته.

أمَّا الأستاذ البوزيدي, رضي الله عنه, فيقول بخلاف هذا القول, كان يردُّ بقوله: "هو متعذر على من لم يصحبنا" ويكرر كلمات أبي العباس المرسي رضي الله عنه "لو أتاني البدوي يبول على ساقه, لا يمسي عليه المساء إلا وهو عارف بالله".

هذه الجملة هي مفتاح فهم منهجه. فالفتح ليس متعذرًا بحد ذاته أو بسبب الزمن, بل هو متعذر على من لم يتصل بالفيض والبركة الخاصين بطريقه وبصحبته. هذا يؤكد أن صحبته كانت هي القناة الفعالة التي تُزيل العقبات وتُيسّر الوصول إلى الفتح, حتى في زمن كثرت فيه الحجب. ولزيادة التأكيد على قوة هذه الصحبة وتأثيرها الفوري, كان الشيخ يكرر كلمات الإمام أبي العباس المرسي, رضي الله عنه, وهذا القول يحمل دلالة رمزية عميقة يمكن تفسيرها كالتالي: "البدوي يبول على ساقه", هي صورة تُشير إلى شخص في أقصى درجات عدم التهذيب الظاهري, أو من ليس لديه أي استعدادات علمية أو عبادية مسبقة. إنه يرمز إلى الإنسان في حالته الطبيعية القصوى, بعيداً عن أي مقامات أو علوم. ثم قوله: "لا يمسي عليه المساء إلا وهو عارف بالله", فهذا هو التحدي الكبير والنتيجة المذهلة. فبمجرد مرافقة الشيخ (صحبته) ولو ليوم واحد, يمكن لذلك الشخص أن يصل إلى معرفة الله (مقام العارف). هذا ليس ادعاءً, بل هو إشارة إلى التحول الروحي الجذري والسريع الذي تحدثه بركة صحبة الشيخ البوزيدي وفيضه, والتي تتجاوز كل الشروط الظاهرية المتعارف عليها.

الصحبة جوهر الطريق

هذا يُرسّخ مكانة الشيخ البوزيدي كونه باب للفتح في زمن كثر فيه اليأس ويؤكد أن القوة الحقيقية لطريقته تكمن في الصحبة التي يُمنح من خلالها المريد فيضاً إلهياً خاصاً يمكنه من تحقيق الفتح الروحي ومعرفة الله في أقرب وقت, بغض النظر عن حالته الأولية. إنه رد قاطع على من يرى أن الخير والفتح قد غابا عن هذا الزمان, ويُعيد الأمل بأن الوصول إلى الله ممكن وميسر لمن يجد المرشد الكامل.

داعية استثنائي

نكتشف هنا جانبًا فريدًا وغير مألوفًا في شخصية الشيخ محمد البوزيدي, رضي الله عنه, وهو سلوكه الدعوي الاستثنائي الذي تجاوز المعهود في زمانه, حتى بين العلماء الدعاة وشيوخ الزوايا. لقد كان نموذجًا نادرًا للداعية الذي يتحرك بروح الرحمة الخالصة, وليس بروح الاستنكار أو الابتعاد عن مواطن الفساد.

ما يُميّز الشيخ البوزيدي حقًا هو شجاعته الروحية في اقتحام الأماكن الصعبة للدعوة. فبينما يميل الكثير من الدعاة إلى التركيز على بيئات الصلاح أو الأماكن التي يلقون فيها القبول, كان الشيخ "يقتحمها متوكلًا على الله", غير آبهٍ بالصعاب أو الأحكام المسبقة. هذا النهج يُمثل قمة التوكل والإيمان العميق بأن الهداية من الله, وأن الداعية عليه أن يبذل وسعه في كل مكان يصل إليه نور الحق. إنه نموذج لداعية لا يخشى مواجهة الظلام, بل يدخله ليضيء فيه شمعة الهداية.

دعوة بائعات الهوى

أبرز مثال على هذا السلوك الاستثنائي هو ارتياده بيوت الدعارة, ليس بدافع الاستنكار أو الإدانة, بل بدافع الإصلاح والرحمة. كان يخاطب النساء المسلمات فيها برفق ولين وبالكلمة الطيبة, داعيًا إياهن إلى التوبة والرجوع إلى الطريق المستقيم. هذه الطريقة تُظهر عمق فهمه للنفس البشرية, وإيمانه بأن باب التوبة مفتوح للجميع, وأن الرحمة تسبق الغضب. وقد كانت نتيجة هذه الهمة العالية وهذا الملقي اللين أن هدى الله على يده الكثيرات منهن.

كان يقول في هذا الموضوع: "الفضل الأكبر ليس في موعظة الأخيار, بل في إنقاذ أهل المعصية من النار", يُلخص فلسفته الدعوية. إنه يؤكد على أن الأجر الأعظم يكمن في مد يد العون لمن هم في أشد الحاجة للهداية, ومن هم على شفا الخطر, بدلًا من الاقتصار على تعزيز إيمان الصالحين. هذه رؤية نبوية عميقة تضع إنقاذ الأرواح من الضلالة في قمة الأولويات الدعوية.

تشجيع الزواج من التائبات

لم يكتفِ الشيخ بالدعوة إلى التوبة, بل تجاوز ذلك إلى تشجيع بعض العزاب من مريديه على الزواج من التائبات منهن. هذا السلوك يُعد قمة في الإصلاح الاجتماعي والاحتواء. إنه لم ينظر إلى الماضي, بل نظر إلى

المستقبل, مؤكدًا على أن في ذلك الأجر العظيم, وأن الفضل في إنقاذ الخلق من مواطن السوء أكبر درجة عند الله. هذا يُشير إلى شمولية منهجه الإصلاحي, الذي لا يتوقف عند التوجيه الروحي الفردي, بل يمتد ليشمل إعادة إدماج هؤلاء النساء في المجتمع حياة كريمة, وتحويل بيوت السوء إلى بيوت عامرة بالصلاح.

بشكل عام, يُظهر هذا الجزء من خصوصيته كداعية استثنائي, شجاع, ورحيم, وذو بصيرة نافذة. لم يكن همه إدانة الخلق, بل إنقاذهم, ولم يخشَ اقتحام أصعب الأماكن بقلب مليء بالتوكل والرحمة, ما جعله نموذجًا فريدًا في تاريخ الدعوة والتصوف.

معرفة النفس ومكرها

يُقدم هذا الجزء من تعاليم الشيخ البوزيدي درسًا جوهريًا حول خطورة النفس البشرية ومكرها, مُبيّنًا أنها قد تكون أشد خطرًا من الشيطان. يُؤكد الشيخ على أهمية اليقظة الدائمة ومجاهدة النفس, مُستشهدًا بتجاربه الشخصية لترسيخ هذا المفهوم في نفوس مريديه.

يُشير الشيخ البوزيدي إلى أن النفس "أعظم خداعًا من الشيطان". هذا التوصيف القوي يُبرز أن النفس, بعكس الشيطان الذي يُوسوس من الخارج, تعمل من الداخل, مُتخذة أشكالًا مُخادعة, فقد تدعو المريد إلى الطاعة والعبادة, ليس لله, بل لغايات خفية مثل طلب الثناء, أو الظهور, أو الشعور بالكمال. عندما يظن المريد أنه وصل إلى درجة عالية من القرب أو المعرفة, قد يركبه الغرور, وهو من أخطر أمراض القلب التي تُحجب العبد عن ربه. هذا الغرور نابع من النفس التي تُحب أن ترى لنفسها الفضل والمكانة. والنفس قادرة على تبرير المعاصي وتزيينها, فتُلبس ثوب الحلال على الحرام, وتُقنع صاحبها بأن ما يفعله صحيح ومقبول, رغم مخالفته للشرع.

كلام الشيخ يُذكّرنا بحديث رسول الله ﷺ: "أعدى عَدوِّكَ نَفسُكَ الَّتي بَينَ جَنبَيكَ". هذا الحديث النبوي الشريف يُعزز فكرة الشيخ, مُبينًا أن الصراع الأكبر للإنسان ليس مع أعداء آخرين, بل مع نفسه التي بين جنبيه, والتي تُساوقه وتُلازمه في كل لحظة. يُؤكد الشيخ البوزيدي على خطورة هذه الخدع بقوله لمريديه: "لا تغتروا بأنفسكم إذا مالت إلى الطاعة, فإن مكرها يفوق مكر الشيطان بسبعين حيلة". هذا

التنبيه يُعد درسًا حيويًا لكل سالك, فالطاعة لا تعني الأمان المطلق, ومجرد أداء الطاعات لا يضمن سلامة القلب, إذا كانت النفس تُساوق وتُفسد النية أو تُغذي الغرور.

مكر النفس يفوق مكر الشيطان. هذا المبالغة العددية (سبعين حيلة) تُبرز مدى تعقيد وخبث حيل النفس, وقدرتها على التغلغل في أدق خفايا القلب. فالشيطان يُوسوس, أما النفس فتُبرر وتُزيّن وتُقنع.

لتعميق هذا الدرس, ضرب الشيخ البوزيدي مثلاً بنفسه, وهذا يُعد دليلاً على صدقه وتواضعه ويقظته الدائمة: "لا تزال نفسي تحدّثني بحديث الشباب, وقد بلغتُ الثمانين من عمري وأرى أنَّ الشيطان لم ييأس من المداومة لخداعي, كما يداوم السارق التحايل على صاحب الدار في ظلمة الليل". هذا يُبين أن مجاهدة النفس لا تتوقف عند سن معينة أو مقام معين. وحاشاه, رضي الله عنه, من حديث النفس الخسيس, فقوله من باب الرمز والإشارة, لا من حالة ضعفٍ مارَّة, وأراد بذلك تنبيههم أنَّ حتَّى شيخهم ما زال في حدّ المجاهدة الدائمة, فزاد بذلك رفعة من شدَّة تواضعه. هذا التشبيه البليغ بالسارق بالليل يُوضح استمرارية كيد الشيطان ومكر النفس. السارق لا ييأس من التحايل على صاحب الدار, والشيطان لا ييأس من خداع الإنسان. هذا يُعزز مفهوم اليقظة الدائمة والحذر المستمر من مكائد النفس والشيطان.

يُقدم الشيخ البوزيدي في هذه الجلسة درسًا عميقًا في التربية الروحية, يُركز على أن معرفة النفس ومكرها هي مفتاح السلوك السليم. فمن عرف عدوه الأكبر, عرف كيف يُجاهده وكيف يحمي نفسه من الغرور والضلال. هذا يُؤكد على أن الطريق إلى الله يتطلب يقظة دائمة, وتواضعًا مستمرًا, وفهمًا عميقًا لطبيعة النفس البشرية.

في إحدى جلساته مع مريديه, تحدّث عن خطر النفس ومكرها, وبيّن أنها أعظم خداعًا من الشيطان, إذ تتزيّن للمريد بثوب الطاعة وتدعوه إلى الركون إليها, وتوهمه بأنه وصل إلى درجة الكمال, فيركبه الغرور, وربما تتحايل عليه وتكسو ثوب الحلال على الحرام. وكلامه عن النفس يُذكّرنا بحديث رسول اللَّهِ ﷺ: "أعدى عَدوِّكَ نَفسُكَ الَّتي بَينَ جَنبَيكَ".

ومن أهمِّ ما قال لهم: "لا تغتروا بأنفسكم إذا مالت إلى الطاعة, فإن مكرها يفوق مكر الشيطان بسبعين حيلة", ثم ضرب لهم مثلًا بنفسه قائلاً: "لا تزال نفسي تحدّثني بحديث الشباب, وقد بلغتُ الثمانين من عمري, وأرى أنَّ الشيطان لم ييأس من المداومة لخداعي, كما يداوم السارق التحايل على صاحب الدار في ظلمة الليل". وفي الأصل: "إن نفسي لم تزل صغيرة وأنا ابن ثمانين سنة وإنها تأمرني بأنواع المخالفة كما كانت تأمرني في عصر الشباب".

توبيخ الشيخ لنفسه

وكان رضي الله عنه, يوبِّخ نفسه بحضرة الناس ويقول: "أيُّ شيء أكون أنا؟ وأيُّ كلب أنا؟" حتى كان يحصل مريديه الانقباض بسبب توبيخه لنفسه, خصوصا بحضرة الأجانب والعلماء.

نرى هنا جانبًا من جوانب تواضع الشيخ البوزيدي ومجاهدته لنفسه. هذا السلوك, الذي قد يبدو غريبًا للبعض, كان في حقيقته منهجًا تربويًا عميقًا للشيخ ولغيره, يكشف عن مدى كماله في التواضع وفنائه عن رؤية نفسه. توبيخ الشيخ لنفسه بهذه الكلمات القاسية, وعلانية أمام الناس, يعكس عدة أبعاد, إنكار الذات والفناء عن الأنا في قوله: "أيُّ شيء أكون أنا؟" هو تجريد للنفس من أي وجود مستقل أو أهمية ذاتية. إنه مقام الفناء عن النفس, حيث لا يرى العارف لنفسه قيمة أو وزنًا أمام عظمة الله.

استخدامه كلمة "أيُّ كلب أنا؟" هو أقصى درجات التواضع والتحقير للنفس. الشيخ لم يرَ لنفسه أي فضل أو مكانة يستحق عليها الاحترام من الخلق. هذا يُناقض تمامًا سلوك المتكبرين الذين يرون لأنفسهم قيمة ويطلبون من الناس الثناء والتعظيم. كان الشيخ يُدرك مكر النفس وحبها للظهور. توبيخها أمام الناس كان وسيلة لكسر شوكتها, وحرمانها من أي فرصة للتكبر أو الإعجاب بالذات, حتى لو كانت الطاعة.

رد فعل مريديه كان الانقباض بسبب توبيخه لنفسه, خاصة بحضور العلماء. هذا الانقباض يُمكن تفسيره بصدمة المألوف, لم يعتادوا على شيخ بهذه المكانة يُقلِّل من شأن نفسه بهذه الطريقة أمام الملأ. ربما خشي المريدون أن يُساء فهم الشيخ من قبل الأجانب أو العلماء الذين قد لا يُدركون عمق مقامه ونيته من هذا التوبيخ, قد يظنون أنه ضعف, أو جنون, أو عدم احترام للذات, بينما هو قمة الاحترام للحق. فانقباضهم نابع أيضًا من محبتهم لشيخهم ورغبتهم في رؤيته في أبهى صورة, وهو ما يتعارض مع توبيخه لنفسه. لكن

هذا الانقباض كان جزءًا من التربية غير المباشرة التي مارسها الشيخ, فهو يُعلّمهم أن التواضع ليس مجرد كلام, بل هو حال وسلوك, وأن العارف الحقيقي لا يعتد بنفسه مهما علا مقامه, وأن جهاد النفس مستمر حتى النهاية.

هذه الواقعة تُبرز عدة جوانب من شخصية الشيخ البوزيدي ومنهجه: الشيخ لم يكن يتظاهر بالتواضع, بل كان يعيشه بكل جوارحه, وكان سلوكه أبلغ من أي عظة, حيث يُري مريديه كيف يكون العارف حقًا, حيث إدراكه العميق لمكر النفس وحبها للظهور جعله يتخذ مثل هذا الإجراء العلاجي القاسي. يرى الشيخ البوزيدي أن التواضع هو الطريق الوحيد للارتقاء الروحي, وأن الكبر هو الحجاب الأكبر. لم يكن يهمه ما يقوله الناس عنه, بل كان همّه رضى الله وسلامة قلبه.

يُعد توبيخ الشيخ البوزيدي لنفسه أمام الناس مظهراً من مظاهر كماله الروحي وتواضعه الفائق. إنه ليس سلوكاً عادياً, بل هو فعل نابع من بصيرة عميقة بآفات النفس, ومنهج تربوي يهدف إلى غرس التواضع الحقيقي في قلوب المريدين, وتذكيرهم بأن العارف لا يعتد بنفسه مهما بلغ من المقامات.

لم يحمل الشيخ ضغينة لأحد

ومن كمال أخلاقه وصفاء قلبه, رضي الله عنه, أنه لم يكن يحمل ضغينة لأحد, وكان يعفو عمّن ظلمه أو أساء إليه. ومِن أبلغ مواقفه في ذلك, أنه لما قُتل ابنه خطأً, لم يطلب القصاص, وكأن لسان حاله يقول: "الصفح أولى, والقلوب لا تَسْلَمُ إلا بالعفو".

شهادة (الشيخ العلاوي) بالغة الأهمية على سمو أخلاق الشيخ البوزيدي وصفاء قلبه, وتُبرز واحدة من أبلغ صفاته وهي عدم حمل الضغينة والعفو عن الظالمين. إنها تُجسد قوة الإيمان في التسامي عن دواعي الانتقام وتفضيل الصفح, وتُؤكد على أن سلامة القلب تُنال بالعفو.

قوله: "لم يكن يحمل ضغينة لأحد, وكان يعفو عمّن ظلمه أو أساء إليه" يُشير إلى درجة عالية من النقاء الروحي وصفاء الباطن لدى الشيخ البوزيدي. حمل الضغائن والأحقاد من أمراض القلوب التي تُعيق السالك عن القرب من ربه. أما الشيخ, فقد تحرر من هذه الأمراض, فكان قلبه متسعًا للجميع, لا مكان

فيه للعداوة أو الكراهية الشخصية. هذا العفو الشامل عن كل من ظلمه أو أساء إليه ليس ضعفًا, بل هو قوة عظيمة تتطلب مجاهدة للنفس, وتحكمًا في الغضب, وترفعًا عن صغائر الأمور. إنه يعكس إيمانًا عميقًا بأن الحساب الحقيقي عند الله, وأن ترك الأمر له هو الأكمل والأفضل. يعلم الشيخ أن الله هو العدل, وأنه سيُجازي كل نفس بما كسبت. تاريخ الأنبياء والأولياء مليء بمواقف العفو عن الظالمين, طلبًا لمرضاة الله.

تُقدم هذه الفقرة صورة متكاملة للشيخ البوزيدي كنموذج أخلاقي يُحتذى به. فزهده وتجرده, وعلمه وتوحيده, كلها تُتوج بقلب نقي, لا يعرف الضغينة, ويُفضل الصفح والعفو, حتى في أشد المواقف إيلامًا. إنها دعوة لكل سالك لأن يُطهر قلبه من الأحقاد, وأن يتسامى على الإساءات, ليعيش حياة السلام الداخلي والقرب من الله.

لا يذكر أحدا بسوء

كان لا يذكر أحدا من الخلق في مجلسه بسوء, ولا يتمنى ضررا لغيره, حتى كأنه لم يكن له عدو البتة, مع أنه يوجد من كان يبالغ في إدايته كما هي سنة الله في خلقه, بل كان يدعو الله بخير لمن أنكر عليه, ويصل من قطعه, ويعفو عمن ظلمه, ويتواضع لمن دونه.

يُكمل هذا الوصف البليغ رسم صورة الشيخ البوزيدي كشخصية روحية استثنائية, تجسد أسمى درجات الأخلاق الإسلامية والصفاء القلبي. إنه لم يكن فقط يعفو عمن أساء إليه, بل كان يمتلك فضيلة أعمق وهي التجرد من العداوة, والدعاء بالخير للمسيء, وإصلاح من قطع, والتواضع للجميع.

قوله: "كان لا يذكر أحداً من الخلق في مجلسه بسوء, ولا يتمنى ضرراً لغيره, حتى كأنه لم يكن له عدو البتة" يُشير إلى درجة غير عادية من النقاء الداخلي والتسامي على عداوات الدنيا. في مجتمع قد تسوده النميمة والخلافات, كان الشيخ البوزيدي نموذجاً للقلب السليم الذي لا يُلوث بالسوء أو الرغبة في إيذاء الآخرين. عدم ذكر أحد بسوء في المجالس دليل على سلامة اللسان, وهي نتيجة لسلامة القلب الذي لا يحمل ضغينة.

بالرغم من وجود من "كان يبالغ في إيذائه كما هي سنة الله في خلقه" (فالأولياء يُبتلون ويُحسدون), إلا أن الشيخ كان يرى نفسه بلا أعداء. هذا ليس إنكاراً للواقع, بل هو تعبير عن حالته الروحية حيث تجاوز مفهوم العداوة الشخصية, وربما نظر إلى إيذائهم له كاختبار من الله أو كفارة لذنوب.

الأكثر إبهاراً هو تصرف الشيخ البوزيدي تجاه من آذاه. لم يكتفِ بعدم الرد, بل كان: "يدعو الله بخير لمن أنكر عليه": هذه قمة الإحسان. فالدعاء بالخير لمن أساء إليه, حتى لو أنكر فضله أو جحد منزلته, هو دليل على قلب امتلأ بالرحمة, وطلب للهداية للآخرين. هذا الفعل يحتاج إلى قوة روحية عظيمة.

"ويصل من قطعه هو إحياء لصلة الرحم والود, حتى مع من بادروا بالقطيعة. هذا يتجاوز مجرد العفو السلبي إلى الفعل الإيجابي لإصلاح العلاقة. "ويعفو عمن ظلمه" وهو تأكيد على منهجه الثابت في التجاوز عن الأخطاء والتنازل عن الحقوق الشخصية. "ويتواضع لمن دونه" وهذه صفة شاملة تُكمل الصورة. فليس تواضعه مقتصراً على العلماء أو الأقوياء, بل يمتد ليشمل كل الناس, حتى من هم "دونه" في المنزلة أو العلم أو الجاه. هذا التواضع للجميع هو من أبرز علامات الأولياء الصادقين.

هذه الصفات مجتمعة تُظهر الشيخ البوزيدي كنموذج نادر للخلق المحمدي الأصيل, وتُؤكد على كمال الإحسان فهو لم يُعامل الناس بالعدل فقط, بل بالإحسان, الذي هو أعلى مرتبة.

هذه الأخلاق لا تنبع إلا من قلب سليم, خالٍ من الغل والحسد, مليء بمحبة الله وخلقه. العفو والصفح والدعاء للمسيء ليسا ضعفاً, بل هما قمة القوة التي يُمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتغلب على دواعي النفس وشوائبها.

حياة الشيخ البوزيدي كانت بمثابة كتاب مفتوح يُعلم الناس كيف يكون المؤمن الحق, وكيف يتعامل مع تحديات الحياة والعلاقات البشرية.

باختصار, كان الشيخ البوزيدي يُجسد مقولة "كنتُ سمعه الذي يسمع به, وبصره الذي يُبصر به...", فكانت تصرفاته تعكس إرادة الله ورحمته, ما جعله "لا يرى له عدواً البتة", لأنه هو نفسه كان تجسيداً للرحمة والعفو لكل من حوله.

يسلِّم على من لقاه ولا يؤاخذ من جفاه

وكان يسلم على من لقاه, ولا يؤاخذ من جفاه, ويقبل على من لا يرضى ملاقاته, ويسلم عليه ويدعو الله له بخير, ويقول: "ليس لنا عدو غير أنفسنا".

3. تُقدم هذه الأوصاف الأخيرة للشيخ البوزيدي لمحة جامعة عن كمال أخلاقه وتسامحه المطلق, وتُختتم بعبارة محورية تُشير إلى فلسفته العميقة حول العدو الحقيقي للإنسان. إنها تُجسد نموذجًا للتعامل مع الخلق بمنتهى الود والصفاء.

يُبرز النص عدة جوانب من سلوك الشيخ البوزيدي تجاه الناس: "كان يسلم على من لقاه", هذه عادة بسيطة لكنها عظيمة الأثر. إفشاء السلام هو من أقوى الروابط التي تُشيع المحبة والألفة, وهي تعكس تواضع الشيخ واستعداده للتواصل الإيجابي مع الجميع, بغض النظر عن معرفتهم به أو مكانتهم. "ولا يؤاخذ من جفاه", هذا يدل على سعة صدره وتجاوزه عن الأخطاء والتقصير. فليس كل من يُقابل بالجفاء يستطيع التسامح وعدم المؤاخذة, لكن الشيخ كان يرتفع عن هذه الصغائر, ما يُشير إلى نقاء قلبه وعدم حمله للأحقاد." ويقبل على من لا يرضى ملاقاته, ويسلم عليه ويدعو الله له بخير", وهذه هي القمة في حسن الخلق والمعاملة. فأن تُقبل على شخص يُكنّ لك الكراهية أو لا يُحب لقاءك, وتُسلم عليه, وتدعو له بالخير, فهذا يتطلب مجاهدة عظيمة للنفس, وقلبًا مملوءًا بالرحمة والمحبة لله والخلق. إنه تطبيق عملي لمبدأ الإحسان مقابل الإساءة, ويُظهر أن الشيخ لم يكن يُعادي أحدًا, بل كان يُريد الخير للجميع. "ليس لنا عدو غير أنفسنا", هذه الجملة هي خلاصة فلسفة الشيخ البوزيدي في تحديد العدو الحقيقي للإنسان, وهي تُشكل محورًا أساسيًا في التربية الصوفية.

هذا القول يُلخص فهمه العميق لطبيعة الصراع الروحي مع العدو الداخلي. الشيخ يُوجه الانتباه بعيدًا عن الأعداء في الصفة البشرية, في الظروف والأحداث, ويركز على العدو الأكبر الكامن داخل الإنسان نفسه, النفس الأمّارة بالسوء, الهوى, الكبر, الحسد, الغضب, الشهوات, الغفلة. هذه الصفات الباطنية هي التي تُبعد الإنسان عن ربه, وتُفسد عليه دنياه وآخرته. إذا انشغل الإنسان بمجاهدة نفسه وتطهيرها من

هذه الأمراض, فلن يجد وقتًا للعداوة التي تأتي من غيره أو الانشغال بالخلق. فالصراع الحقيقي ليس مع الآخرين, بل مع النفس.

عندما يرى الإنسان أن عدوه الحقيقي هو نفسه, فإنه يتوقف عن رؤية الآخرين كأعداء, ما يُفسح المجال للمحبة, والتسامح, والتعاون بين الناس. هذا الفهم يُعزز من الوحدة الروحية والاجتماعية. التحرر من أغلال النفس وهواها هو التحرر الحقيقي الذي يُمكن العبد من العيش بسلام داخلي, مهما كانت الظروف الخارجية.

تُؤكد هذه الأوصاف مجتمعة أن الشيخ البوزيدي كان بمثابة معلم روحي متكامل يُربي الناس بالقدوة والقول, ويُعلّمهم كيف يُطهرون بواطنهم وظواهرهم. فمثل هذه الأخلاق كانت من أبرز صفات النبي ﷺ في تعامله مع الأعداء والمسيئين. من يستطيع أن يرى عدوه في نفسه, ويُجاهدها, لا يُمكن أن تُهزمه عداوة خارجية. تُقدم حياته نموذجًا للمؤمن الذي يُمكنه أن يُحول كل تحدٍ إلى فرصة للنمو الروحي, ويُصبح منارًا للهداية للآخرين.

باختصار, كان الشيخ البوزيدي نموذجًا حيًا للتسامح المطلق, ومثالاً يُحتذى به في الترفع عن صغائر النفوس, مع إدراك عميق بأن النصر الحقيقي يُنال بمجاهدة النفس الأمارة بالسوء.

لم يترك خلفه من قال فيه زورا

ولما انتقل لرحمة الله, عليه تمام الرضا والرضوان, لم يترك خلفه من قال فيه زورا, أو رأى فيه كبرا, بل تأسف على فراقه الغني والفقير, وبكته عين الصغير والكبير. ولا تزال الأنفس تثني عليه بخير.

ترك الشيخ البوزيدي أثراً في القلوب بعد رحيله, وحياته كانت برهانًا على صدقه وتواضعه, ما أكسبه محبة وقبول الجميع. إنها خاتمة تُؤكد على عظمته كعارف بالله. "ولما انتقل لرحمة الله, عليه تمام الرضا والرضوان, لم يترك خلفه من قال فيه زورًا, أو رأى فيه كبرًا" هو شهادة عظيمة على صفاء حياته وخلوها من الشوائب. في كثير من الأحيان, قد يُثير رحيل الشخصيات العامة الجدال أو النميمة, لكن الشيخ البوزيدي ترك

خلفه إرثًا من المحبة والتقدير الذي لم يُشبه شائبة, وهذا يؤكد على صدقه ووضوحه في تعاملاته. لم تكن هناك خفايا أو نوايا سيئة يُمكن أن تُفترى عليه بعد موته.

"أو رأى فيه كبرًا", إن تواضعه لم يكن زائفًا, بل كان حقيقة متجذرة في نفسه, حتى أن أقرب الناس إليه لم يروا فيه مثقال ذرة من الكبر, بل تأسف على فراقه الغني والفقير, وبكته عين الصغير والكبير تُبرز مدى شمولية المحبة والقبول الذي حظي به الشيخ البوزيدي. هذا القبول لم يكن مقتصرًا على طبقة اجتماعية معينة, أو سن معينة.

"الغني والفقير" يُشير إلى أن تأثيره لم يقتصر على مريديه الزهاد, بل امتد إلى الأغنياء وأصحاب الجاه, الذين تأثروا بزهده وعطائه.

"الصغير والكبير", لقد كان قدوة للجميع, مما يدل على أن أخلاقه السمحة, وتواضعه, وكرمه, قد لامست قلوب جميع الأعمار, مما جعله محبوبًا من الجميع.

"تأسف وبكاء", هذا يُعبر عن الحزن العميق والصادق على فقده, ويُؤكد على مكانته في قلوب الناس, وأنه لم يكن مجرد شيخ أو معلم, بل كان أبًا روحيًا, ومرجعًا للجميع.

"ولا تزال الأنفس تثني عليه بخير" تُؤكد على أن إرث الشيخ البوزيدي الروحي والأخلاقي لا يزال حيًا ومستمرًا. فذكرى الصالحين لا تموت بموت أجسادهم, بل تبقى أفعالهم وأقوالهم وأثرهم في القلوب. هذا الثناء المستمر هو دليل على العلم النافع والعمل الصالح الذي خلده الله في صدور الناس. فإذا أحب الله عبدًا, ألقى محبته في قلوب الخلق. فالشيخ لم يترك مالًا أو جاهًا, بل ترك قلوبًا أحبته, وأرواحًا اهتدت على يديه, وذكرًا حسنًا لا ينقطع.

تُقدم هذه الفقرة صورة مؤثرة لرحيل رجل عظيم, لم يترك خلفه سوى المحبة الصادقة والذكر الحسن, مما يؤكد على أن حياته كانت خالصة لله, وأنه كان من أهل الله حقًا, الذين يُذكرون بالخير على مر الأزمان.

لا يتميز عن غيره في مجلسه

وكان من تواضعه: أنه لا يتميز عن غيره في مجلسه, ولا يختص بمحل دون غيره. وقد خصص له مريدوه مرة وألزموه مكانًا في المسجد يُعْرَفُ به, فقال رضي الله عنه: "لعن الله الرجل الممَّيز بين إخوانه". هيأ له مريدوه مرة مقصورة لينفرد فيها هو ومن لزمه من أهل خصوصيته فقال, رحمة الله عليه: "من احتجب عن الخلق احتجب الله عنه يوم القيامة". وكان يقول: " كان رسول الله ﷺ لا يحتجب عن الخواص ولا عن العوام".

يُبرز هذا جانبًا محوريًا من شخصية الشيخ البوزيدي وهو تواضعه الجم ورفضه التام لأي مظاهر للتمييز أو الانفراد عن مريديه وعامة الناس. لقد كانت حياته مدرسة عملية في كسر حواجز الأنا والحرص على الوحدة والمساواة في سبيل الله. رفض التميز والاحتجاب كان من سمات الشيخ البوزيدي البارزة أنه "لا يتميز عن غيره في مجلسه, ولا يختص بمحل دون غيره". هذا يُشير إلى المساواة في المعاملة. لم يُفضل نفسه على أحد, ما يعكس قلبًا متواضعًا يرى الجميع سواسية أمام الله. فالتميز في المجلس أو تخصيص مكانة معينة غالبًا ما يرتبط بالوجاهة أو السلطة, وهو ما كان الشيخ ينأى بنفسه عنه تمامًا. وعندما حاول مريدوه, بحسن نية وتقدير, أن يخصصوا له مكانًا مميزًا في المسجد, جاء رده قويًا وحاسمًا: "لعن الله الرجل الممَّيز بين إخوانه". هذه العبارة الشديدة تُظهر مدى رفضه الشديد لأي شكل من أشكال التمييز أو الطبقية بين المسلمين. فالتمييز يفسد الأخوة ويُغذي الكبر في النفوس, وهو ما كان الشيخ يُحاربه في نفسه وفي مريديه.

لم يكتفِ الشيخ برفض التمييز في المجلس, بل رفض أيضًا أي محاولة لعزله أو إفراده. فعندما هيّأ له مريدوه "مقصورة لينفرد فيها هو ومن لزمه من أهل خصوصيته", جاء رده ليؤكد على مبدأ أساسي في التربية الصوفية: "من احتجب عن الخلق احتجب الله عنه يوم القيامة". هذه المقولة العميقة تُحذّر من خطورة الانعزال عن الناس. فالتصوف الحقيقي ليس رهبانية أو انقطاعًا, بل هو حضور مع الله في قلب الخلق. العارف لا يحتجب عن الناس, بل يُخالطهم ويهديهم ويخدمهم. الاحتجاب قد يُفسر على أنه كبر, أو خوف من الناس, أو عدم قدرة على تحملهم, وهي كلها عوائق أمام الكمال الروحي. "كان رسول الله ﷺ لا يحتجب عن الخواص ولا عن العوام", وهذه العبارة تُعد الحجة القاطعة والأسوة الحسنة للشيخ البوزيدي. فهو

يُرجع كل أفعاله ومنهجه إلى سنة النبي ﷺ, الذي كان سهلاً ميسرًا, يُخالط الجميع دون تمييز بين خاص أو عام, وهذا هو قمة التواضع والبساطة.

تُبرز هذه المواقف جوانب هامة من شخصية الشيخ البوزيدي ومنهجه. لم يكن الشيخ يتكلم عن التواضع فحسب, بل كان يجسده في حياته اليومية. رفضه للتميز والاحتجاب يُشير إلى تحرره التام من أغلال الأنا والكبر. ومن يرى لا وجود لغير الله, لا يرى لنفسه تميزًا عن الآخرين. كان يربي مريديه على التواضع, ليس بالقول فقط, بل بكسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي قد تُعيقهم عن القرب من الله والاتصال بالخلق. كل أفعاله كانت تهدف إلى محاكاة سنة النبي ﷺ في كل تفاصيل حياته.

يُعد تواضع الشيخ البوزيدي ورفضه لأي مظهر من مظاهر التمييز أو الانفراد درسًا بليغًا في كيفية تحقيق العبودية الخالصة لله, وكيفية بناء علاقات إنسانية تقوم على المحبة والمساواة والتجرد, اقتداءً بسيرة النبي الأكرم ﷺ.

الخفاء بين الخلق

كان الشيخ البوزيدي, رضي الله عنه, كثير التردد على الأسواق وغيرها, وكان يقضي مآربه بيده ويحملها كغيره, حتى كان مريدوه يستثقلون منه ذلك وتأبى به أنفسهم لوجود البغي منهم في أول أمرهم, فقالوا له: "ألا تكلف من ينوب عنك في قضاء ماربك؟" فقال: "أتريدون أن أحتجب عن الخلق؟ ألم يكفكم أني معهم ولا يراني أحد منهم؟" أي لا يراه أحد أنه من ذوي الخصوصية, وكان يريد بذلك الاختلاط مع الخلق في الخفاء حتى لا يُعرف من بينهم, فلا يصل إليه إلا من أراد الله أن يوصله إليه, فاطَّلعهم الله على حاله وسلموا لأخلاقه من كل الوجوه, وصار فعله عندهم أطيب من الشهد. وحاصل الأمر: كانت أحواله خارقة للعادة, قلَّما توجد في غيره.

هذا جانباً فريداً من حياة الشيخ محمد البوزيدي, رضي الله عنه, يُظهر زهده, وتواضعه, ونهجه الباطني في الاختلاط بالناس دون أن يُعرف. هذا السلوك, بالرغم من بساطته, كان يثير استغراب وثِقَل مريديه في بادئ الأمر, ربما برغبتهم في تعظيم شيخهم أو حمايته من مشاق الحياة اليومية. عندما سألوه: "ألا تكلف

من ينوب عنك في قضاء ماربك؟", جاء رده ليُلقي الضوء على حكمته الخفية: "أتريدون أن أحتجب عن الخلق؟ ألم يكفكم أني معهم ولا يراني أحد منهم؟".

هذا الرد يكشف عن سر عظيم في منهج الشيخ: فهو لا يريد أن يحتجب عن الناس, بل يريد أن يكون بينهم, مختلطاً بهم جسدياً, لكن محتجباً عنهم روحياً. عبارة "لا يراني أحد منهم" تعني أنه لا يراه أحد "أنه من ذوي الخصوصية" أو من أهل الله. كان هدفه من هذا الاختلاط في الخفاء هو ألا يُعرف من بينهم, فلا يصل إليه إلا من أراد الله أن يوصله إليه. هذا يُعد منهجاً دقيقاً في التربية والسير, حيث يكون الشيخ متاحاً في الظاهر, لكن الوصول إليه بخصوصيته الروحية مرهون بإرادة الله تعالى وصدق المريد, وليس بالبحث الظاهري أو الفضول.

ومن جهة أخرى يمكن أن الشيخ البوزيدي قدَّم نموذجًا حيًا للقدوة العملية, حيث رأى المريدون شيخهم يُطبّق ما يدعو إليه, مما يُرسّخ القيم في نفوسهم. فعله كان وسيلة لكسر الكبر في نفوس المريدين, وتلقينهم درسًا في التواضع, وألا يرى أحد لنفسه فضلًا على الآخرين ويُعلمهم عدم التعلق بالمظاهر. يُؤكد ذلك على أنَّ الجميع سواسية, وأن التكريم الحقيقي ليس في الشكل والمظهر, بل في القرب من الله.

لقد أثّر هذا السلوك, فأطّلعهم الله على حاله وسلموا لأخلاقه من كل الوجوه. بفضل توجيه الله, فهموا حكمته في هذا الخفاء والتواضع, وأدركوا أن هذا جزء من كماله الأخلاقي والروحي. إن سلوكه لم يكن مجرد تواضع, بل كان جزءاً من أحواله الخارقة للعادة التي لم تكن معهودة لدى الكثيرين, وتؤكد على تفرد الشيخ البوزيدي في جمع الظاهر مع الباطن, والاندماج في حياة الناس مع الحفاظ على سر خصوصيته الروحية.

قال شيخ مشايخ هذه الطائفة مولانا العربي الدرقاوي, رضي الله عنه: "الناس يتنافسون في العُلوِّ من هو أعلى, ونحن نتنافس في الدُنوِّ من هو أدنى", وقد سئل أيضا عن مهر الطريق, فقال: "إسقاط المنزلة". فمن طلب العلو بنفسه انتكس ورجع, ومن تواضع لربه تخلَّص وارتقع. قال ﷺ في وصيته لسيدنا علي, كرَّم الله وجهه: "لا تكن رأسا فإن الرأس كثير المصائب", وفي حب العُلوِّ من المضار ما لا يدخل تحت حصر.

يُبرز هذا الجانب من حياة الشيخ البوزيدي أن عظمته لم تكن في الخوارق الحسية بقدر ما كانت في كمال أخلاقه وتواضعه, وقدرته على تحويل كل فعل عادي إلى درس روحي عميق, يُربي به النفوس ويُطهرها.

الخفاء والخمول

وكان يقول رضي الله عنه يقول في موضوع الخفاء: "قال منهل شرابنا شيخ مشايخنا سيدي محمد بن قدور الوكيلي, رضي الله عنه: "إذا طلبونا بمعنى الخصوصية, هربنا منهم إلى غاية الجهل, فلن يصل إلينا أحد منهم, ونستريح من شرهم".

وقد لاقى شيخه مولانا العربي الدرقاوي نفس السلوك مع شيخه علي الجمل, رضي الله عنهما, لما ذهب ليأخذ عنه الطريق, وكان ذلك بإلهام من الله, أو منام, فأخذ الشيخ علي الجمل في رميه بالحجارة, قائلاً له: "من أعلمك أنني من ذوي الخصوصية, اذهب إلى أمك". ففعل ذلك مرارا إلى أن حقَّق الصدق منه.

الخفاء والتخفي هي خصوصية الأولياء في حماية السر. مبدأ الخفاء والتخفي الذي يتبعه بعض كبار الأولياء, وكيف يُعد هذا السلوك منهج روحي لحماية السر الإلهي ومنع غير أهله من الوصول إليه, أو كما عبر الشيخ البوزيدي عن ذلك في نقلٍ عن شيخه قولا, لا ينبغي الفهم هو الهروب من الناس عموماً, بل هو تخفٍّ مقصود عن "طالبي الخصوصية". هؤلاء الذين يبحثون عن الكرامات, أو عن التفضيل, أو عما يظنونه نفوذاً دنيوياً مرتبطاً بالأولياء, لا عن الله بصدق. فالهروب إلى غاية الجهل هنا ليس جهلاً حقيقياً, بل هو إظهار لعدم المعرفة الظاهرية أو التخفي بالبساطة, لئلا يتصل بهم من ليس أهلاً لسرهم, وبالتالي يستريحوا من شرهم الذي قد ينشأ من سوء القصد أو عدم الإدراك الحقيقي لمقامات الأولياء.

يُعزز هذا المبدأ بمثال تاريخي من سيرة الشيخ مولاي العربي الدرقاوي الذي لاقى نفس السلوك من شيخه علي الجمل. هذا السلوك العنيف الظاهري من الشيخ علي الجمل ليس رفضاً حقيقياً, بل هو اختبار قاسٍ لصدق المريد وقوة عزيمته وتجرده من حظوظ النفس. إنه يمثل مرشّحاً دقيقاً للغاية يهدف إلى تمييز الصادق من غيره, فمن يطلب الخصوصية أو يفتقر إلى الصدق, سرعان ما ينصرف أمام مثل هذه المعاملة.

فالتخفي والصد عن المريد يُجبره على تجريد قصده, بحيث لا يكون طلبه للشيخ إلا من أجل الله وحده, لا لأجل الكرامات أو الشهرة. هذه الأفعال الغريبة عن المألوف تُظهر أن الشيخ يتصرف بغير المنطق العادي, بل ببصيرة إلهية واختبارات روحية عميقة لا يفهمها إلا الخواص.

إن مبدأ الخفاء هذا يُعتبر جزءاً لا يتجزأ من حماية السر الرباني الذي يحمله الأولياء. فالوصول إلى هذا السر لا يكون إلا بصدق محض, وتجرّد كامل, ورغبة صادقة في الله لا في الشيخ أو في مظاهر الكرامة.

كان يلبِّي كلَّ من دعاه

وكان من حسن أخلاقه أنَّه لا يعجز عن أحد من الخلق, بل يلبِّي كلَّ من دعاه. فالله يجازيه عن المسلمين خيرا, إنَّه كان طبيب الأجسام والقلوب.

لحياة الشيخ البوزيدي جانبًا عظيمًا من حسن أخلاقه وتفانيه في خدمة الخلق, وعدم عجزه عن أحد, وتلبية دعوة كل محتاج, ما يُبرهن على أنه كان بالفعل "طبيب الأجسام والقلوب". قوله: "كان من حسن أخلاقه أنَّه لا يعجز عن أحد من الخلق, بل يلبِّي كلَّ من دعاه" يُشير إلى الكرم المطلق والتفاني. لم يكن الشيخ يقيد خدماته بنوع معين من الناس أو بحجم المشكلة. كان متاحًا للجميع, مستعدًا لتقديم العون لكل من يطلبه. "لا يعجز عن أحد" تُعطي صورة رجل لا يتعب ولا يكل من خدمة الناس, ولا يُرد محتاجًا. تلبية دعوة كل من يدعوه, بغض النظر عن مكانة الداعي أو حاجته, هو دليل على تواضع الشيخ وتجرده من الأنا. فهو لا يرى لنفسه مقامًا يمنعه من القيام بتلبية حاجات الناس, حيث كان الشيخ يُقدم المساعدة في الشفاء, ويُصلح ذات البين, ويُربي النفوس. كل هذه الأفعال تصب في خانة تلبية دعوة المحتاجين.

"طبيب الأجسام والقلوب", هذه الجملة الختامية هي وصف جامع ولقب شرف يُطلق على الشيخ البوزيدي, يُلخص جوهر رسالته ودوره في المجتمع. "طبيب الأجسام" يُشير إلى قدرته على شفاء الأمراض الجسدية. هذا الجانب من الكرامات يبرز بركة الشيخ وقدرة الله على الإجراء الخارق على يديه لشفاء الأجساد. أما "طبيب القلوب" وهذا هو الجانب الأعمق والأهم في دوره, فقلوب الناس تُعاني من أمراض أشد فتكًا من أمراض الأجسام كالحسد, الكبر, الغفلة, الضغينة, التعلق بالدنيا. الشيخ البوزيدي كان يُعالج

هذه الأمراض الباطنية بذكر الله ومعرفته, بالتوجيهات الحكيمة والدروس العملية, بالدعاء, والإصلاح, والعفو, والتواضع, بإزالة الحجب بين العبد وربه.

هذا اللقب يُبرز أن الشيخ كان شخصية جامعة, لا تقتصر على جانب واحد من الإصلاح, بل تشمل الإنسان بكليته روحه وجسده. هذه الأوصاف تُؤكد أن الشيخ البوزيدي كان صاحب كرامات ظاهرة وباطنة تتجلى في شفاء الأجساد وشفاء القلوب, لا يكتفي بالجانب الروحي النظري, بل يلامس حياة الناس العملية ويُعالج مشكلاتهم, ويُجسد بذلك معنى أن يكون العارف بالله خادمًا للمسلمين, يسعى في حوائجهم ويُخفف عنهم. شخصية محبوبة ومقبولة لأنه كان يبذل نفسه ووقته وجهده في سبيل نفع الآخرين.

يُختم وصف الشيخ البوزيدي بكونه "طبيب الأجسام والقلوب", وهذا اللقب يُعد تلخيصًا معبرًا لحياته التي كانت مُكرسة لله ولخلقه, جامعًا بين العطاء الروحي والجسدي, ومُتجليًا في أخلاقه التي كانت دائمًا في خدمة المحتاج. "فالله يجازيه عن المسلمين خيرًا" هي دعوة صادقة تُناسب مكانته العالية في قلوب من عرفوه.

يصل مريديه في بيوتهم ولا يؤاخذهم بضعفهم

ومن فضل الله على مريديه أنه كان يصلهم في بيوتهم, ولا يؤاخذهم بضعفهم.

جانب آخر من أخلاق الشيخ البوزيدي الكريمة ومنهجه التربوي القائم على الرحمة والاحتواء, ويُبرز فضله على مريديه وعامة الناس من خلال مبادراته في التواصل معهم في بيوتهم وتفهمه لضعفهم البشري. يُشير إلى أمر بالغ الأهمية وهو فضل الله على مريديه في تواصل الشيخ بهم, ما يُعكس تواضعه وكونه يرى نفسه وسيلة لرحمة الله. الشيخ لم ينتظر أن يأتي الناس إليه دائمًا, بل كان يُبادر هو بزيارتهم في بيوتهم. هذه الزيارات كانت تُعتبر رعاية أبوية تُشعر المريدين وعوائلهم بالاهتمام الشخصي والرعاية العميقة من شيخهم تُمكّن الشيخ من الاطلاع على أحوالهم عن كثب, وتقديم النصح المباشر, وتثبيتهم على الطريق وتُزيل أي حواجز قد تُقام بين الشيخ ومريديه, وتُعزز الألفة والمحبة.

والجزء الأهم هو: "ولا يؤاخذهم بضعفهم". هذه العبارة تُظهر قمة الحكمة التربوية والرحمة القلبية التي تحلى بها الشيخ البوزيدي. "الضعف" هنا قد يشمل التقصير في العبادات, فالناس ليسوا على درجة واحدة من القوة الإيمانية أو الاجتهاد, فكل ابن آدم خطّاء, أو عدم القدرة على استيعاب المقامات العالية مباشرة, وهو ما قد يُصيب بعض السالكين.

عدم مؤاخذتهم على ضعفهم يعني التعامل بالرفق واللين بدلاً من التوبيخ أو الإقصاء. كان الشيخ يُعاملهم بالصبر والتشجيع. الشيخ كان يُدرك أن الكمال صعب, وأن الضعف جزء من طبيعة الإنسان, وبالتالي كان يُعاملهم بما يُقوّيهم ويُصلحهم لا بما يُنفّرهم. هذا يُشير إلى أنه كان يستر عيوبهم, ويسعى لإصلاحهم بروح الأب الذي يُحب أبنائه. يُبرز لنا هذا أن الشيخ البوزيدي كمربٍ روحي حقيقي, لا يكتفي بالتعليم النظري أو الوعظ العام, بل يرعى أفراد جماعته, يُتابع أحوالهم الشخصية ويسعى لتثبيتهم. يطبق مبدأ التيسير لا التعسير في الدعوة والتربية. يُظهر الرحمة كصفة أساسية من صفات العارف بالله, الذي يجعل قلبه متسعًا لضعف الخلق. يبني جسور المحبة والثقة بينه وبين مريديه, مما يُعزز التزامهم بمنهجه.

تُعطي هذه الملاحظة لمحة عن جانب هام من جوانب قيادة الشيخ البوزيدي الروحية, حيث كان يجمع بين علو المقام والنزول إلى مستوى الناس, وتفهم ضعفهم, والعمل على تقويتهم باللين والرحمة, مما جعله محط ثقة ومحبة الجميع.

كثير الاستغراق في فن التوحيد

كان الشيخ البوزيدي كثير الاستغراق في فن التوحيد, لا يرضى أن يتلفظ بالغيرية, وكل ما فيه رائحة التقييد.

التوحيد المطلق ونبذ الغيرية يُلقي الضوء على جانب جوهري من شخصية الشيخ البوزيدي الروحية وهو استغراقه العميق في فن التوحيد ونبذه لكل ما يُشير إلى "الغيرية" أو "التقييد". هذا يُعد من أعمق مقامات العارفين بالله, ويُبرز رؤيتهم للوجود.

عبارة "كثير الاستغراق في فن التوحيد" تعني أن الشيخ لم يكن يُعالج التوحيد كمجرد عقيدة فكرية أو مجموعة من القواعد, بل كان يعيشه كفن وحال وذوق. هذا الاستغراق يُشير إلى وحدة الوجود في عين بصيرته, يرى الله في كل شيء, فلا يرى وجودًا حقيقيًا لغيره. التوحيد عنده ليس فقط نفي الشريك لله, بل هو نفي كل ما سوى الله في القلب والعين. هذا الاستغراق يُشير إلى عمق المعرفة الإلهية التي وصل إليها الشيخ, حيث أصبح التوحيد جزءًا لا يتجزأ من كيانه.

نبذ الشيخ للغيرية وكل رائحة التقييد. هذه النقطة بالذات هي جوهر مقام الشيخ البوزيدي في التوحيد كما وصلنا من تلميذه وخليفته الشيخ العلاوي, رضي الله عنهما. "الغيرية" تعني رؤية شيء آخر مع الله, أو وجود "أنا" منفصلة عن "هو" سبحانه وتعالى. أما "التقييد" فيُشير إلى كل ما يُقيد الروح ويُحجبها عن شهود الحقيقة المطلقة, منها التعلق بالدنيا, الشهوات, المناصب, الأموال, كل هذه تقييدات تُبعد القلب عن التوحيد الخالص. ومنها رؤية النفس والأنا, الكبر, العجب, الغرور, وكلها صور من "الغيرية" التي تُحجب العبد عن الفناء في التوحيد. ومنها القيود العقلية والفكرية, وعليه يجب تجاوز الأوهام والتصورات المحدودة للوجود, والانطلاق نحو الفهم المطلق للوحدانية الإلهية. ومنها الالتفات إلى الأسباب دون المسبّب, فالعارف لا يرى الأسباب, بل يرى يد المسبّب الأوحد في كل شيء. فالشيخ البوزيدي, بحكم استغراقه, لا يرضى أن يُتلفظ بشيء يُشير إلى "الغيرية", بمعنى أنه لا يقر بوجود حقيقي أو مؤثر لغير الله, ويرى أن كل الوجود هو تجلٍ لأسماء الله وصفاته.

ومن دلالات هذا المقام كمال العبودية, فعندما يتجرد العبد من رؤية غير الله, يصبح عبده الصرف, فلا يرى لنفسه حولاً ولا قوة ولا وجودًا مستقلاً. ومنها الرضا المطلق لأن كل شيء من الله وإليه, فلا يوجد مجال للشكوى أو الاعتراض أو التعلق بشيء سوى الله. ومنها العلم اللدني, فالاستغراق يُفتح له باب العلم اللدني والفراسة أو الكشف, فيرى الحقائق كما هي دون حجب. ومنها التأثير الروحي العميق, فشخصية بهذا العمق التوحيدي يكون لها تأثير روحي هائل على من حولها, فهي تُذكرهم بالله وتُعينهم على تجاوز ظواهر الوجود إلى حقيقته.

يُصوّر هذا الوصف الشيخ البوزيدي كعارف حقيقي تجاوز كل الحجب الدنيوية والنفسية, واستقر في مقام التوحيد الخالص, حيث لا يرى إلا الله في كل شيء.

"أين العبيد؟ فإني لا أرى في الوجود إلا الواحد"
كان في بعض الأوقات يقول: "أين العبيد؟ فإني لا أرى في الوجود إلا الواحد", ثم يتلو هذه الآيات: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) (الحديد, 3) (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (البقرة, 115)

تُقدم هذه العبارة النيرة للشيخ البوزيدي في قوله: "أين العبيد؟ فإني لا أرى في الوجود إلا الواحد", مصحوبة بالآيات القرآنية, عمقًا إضافيًا لفهم مقام التوحيد المطلق الذي كان يعيشه, ليس إنكارًا لوجود الخلق, بل هو فناء في شهود الحق.

هذه الجملة تُعبّر عن مقام التوحيد الصوفي الخالص, الذي يُعرف بتوحيد الشهود. هذا المقام يتجاوز توحيد الألوهية (أن الله هو الإله الواحد) وتوحيد الربوبية (أن الله هو الخالق المدبر الوحيد) إلى رؤية عميقة تتجلى فيها الفناء في الذات الإلهية. عندما يصل العارف إلى هذا المقام, لا يعود يرى وجودًا مستقلاً لأي شيء سوى الله. كل ما في الكون هو تجلٍ لأسماء الله وصفاته, ولا وجود حقيقي له بذاته. ثم يأتي نفي الفاعلية عن غير الله إذا لا يرى في الوجود إلا الواحد, فمعنى ذلك أنه لا يرى فاعلاً حقيقيًا سواه. "العبيد" في هذا السياق, وإن كانوا موجودين بالصورة الظاهرة, إلا أنهم لا يملكون فاعلية ذاتية مستقلة عن إرادة الله وقدرته. كل حركة وسكون, وكل إيجاد وإعدام, هو بفعل الواحد الأحد.

الإنسان العادي يرى الأسباب والمسببات, ويرى الخلق كذوات منفصلة. أما العارف, فبسبب صفاء بصيرته, يخرق هذه الحجب ويرى الواحد الأحد في كل شيء.

استشهاد الشيخ البوزيدي بهذه الآية الكريمة "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ" (الحديد, 3) ليس عشوائيًا, بل هو تأكيد لمقامه: "الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ": تُشير إلى أزلية وأبدية الله, وأنه الوجود الحقيقي الوحيد الذي لا يسبقه شيء ولا يلحقه شيء. كل ما سواه حادث وزائل. "وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ" هي جوهر رؤية الشيخ. الظاهر يُشير إلى تجليات الله في الكون المرئي, فكل ما تراه العين هو مظهر من مظاهر أسماء الله

وصفاته. الباطن يُشير إلى ذاته سبحانه وتعالى التي لا تُدركها الأبصار ولا تُحيط بها العقول. وبجمعهما, تُصبح الآية دليلاً على أن الله هو المحيط بكل شيء, ظاهرًا وباطنًا, ولا يوجد شيء خارج عن حقيقته ووجوده. هذا يرفع الحجب بين الوجود الظاهر والوجود الباطن.

تأييد قرآني آخر: "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ" (البقرة, 115), هذه الآية تُعزز المعنى السابق وتضيف إليه بعدًا عمليًا. أينما تتجه, في أي مكان أو زمان, فسترى وجه الله, أي تجليه وحضوره وعنايته. هذا يؤكد على أن الله ليس محدودًا بجهة أو مكان, بل هو محيط بكل شيء. تُدعو الآية العارف إلى أن يرى الله في كل ذرة من الوجود, في كل اتجاه, وفي كل حركة. فإذا توكل العبد على الله حق التوكل, ورأى الفاعل الواحد, انشرح صدره واستقام أمره.

تُظهر أقوال الشيخ البوزيدي هذه أنه كان يعيش حالة من الفناء في التوحيد, حيث لم يعد يرى غير الله في الوجود. هذه الرؤية ليست فلسفة نظرية, بل هي حال قلبي عميق يُحرر العارف من التعلق بالخلق, ويُزيل من قلبه كل أثر للكبر أو الأنا, ويُرسخ فيه اليقين بأن لا حول ولا قوة إلا بالله. هذا المقام هو منتهى مقامات السالكين, حيث يكون العبد عبدًا صرفًا لله, فلا يُنازع مولاه في فاعليته ولا في وجوده.

شهود التوحيد

قال رضي الله عنه: "كنا في تلاوة القرآن العظيم جماعة بحضرة أستاذنا سيدي محمد ابن قدور, ولما وصلنا إلى قوله تعالى: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) (الحديد, 3), قام إنسان من وسطنا وقال: "العين التي ترى ما سوى الله, حقَّها أن تعمى", فعند ذلك شرع الفقراء في الذكر وتركوا التلاوة".

يقدم هذا المقطع مشهدًا مؤثرًا وعميقًا من مجالس الذكر والعلم في حضرة شيخ البوزيدي، وهو سيدي محمد بن قدور، وكيف تجلى التوحيد الشهودي في لحظة فارقة. يروي الشيخ البوزيدي أنهم كانوا يتلون القرآن الكريم جماعة بحضرة أستاذهم, وعندما وصلوا إلى قوله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ" (الحديد، 3)، حدث أمر لافت. هذه الآية الكريمة هي من أعظم آيات التوحيد، وتُعرف بجمعها لصفات الله الأساسية التي تُشير إلى شمولية وجوده وحضوره في كل زمان ومكان، ظاهراً وباطناً. فور تلاوة هذه الآية العظيمة، "قام إنسان من وسطنا وقال: العين التي ترى ما سوى الله، حقَّها أن تعمى". هذا القول هو تعبير

عن قمة التوحيد الشهودي والفناء في الله. فالعارف بالله، عندما تنجلي له حقيقة أن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لا يرى في الوجود شيئًا حقيقيًا مستقلاً سوى الله, كل ما سواه يصبح فانياً في نظره، أو مجرد مظاهر للحق. فإذا رأت العين وجوداً مستقلاً لغير الله، فإنها لم تدرك حقيقة التوحيد بعد، وحقها أن "تعمى" عن رؤية الأغيار لترى الحق وحده. تأثر الفقراء بهذا التجلي، "فشرع الفقراء في الذكر وتركوا التلاوة" وكان الذكر استجابة فورية. هذا التحول الفوري من تلاوة القرآن إلى الذكر الصريح يُشير إلى الاستغراق في الشهود. الموقف لم يعد يتطلب تلاوة حرفية، بل استغراقاً كلياً في المعنى الذي تجلى.

الذكر (خاصة ذكر اسم "الله" أو الأسماء الجامعة) هو أعلى مراتب التعبير عن هذا الشهود وهذا الفوحان التوحيدي. إنه يمثل استجابة فورية للقلب الذي ذاب في حقيقة الآية.

الكلمة التي خرجت من هذا الشخص كانت قوية ومؤثرة لدرجة أنها هزت قلوب الفقراء جميعًا، ودعتهم إلى حالة من الذكر العميق، مما يدل على صدق الحال الذي أصاب القائل، وتأثيره على المجلس. هذا المشهد يوضح كيف كانت مجالس أولياء الله تتجاوز مجرد التلقي السطحي للقرآن، لتتحول إلى تجليات عميقة للحقائق الإلهية، حيث يدرك السالكون معنى التوحيد لا بالتعلم فقط، بل بالذوق والشهود.

طائف الشيطان

قال رضي الله عنه في قوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ" (الأعراف: 201) هو الطائف البشري يخرج العارف من الحضور, وهو الجمع إلى الغفلة, وهو شهود الفرق, وفيه معنى النسيان المأخوذ من قوله تعالى: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ" (الكهف: 24).

يقدم الشيخ البوزيدي، رضي الله عنه، تفسيراً باطنياً عميقاً لقوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ" (الأعراف: 201)، مركزاً على مفهوم "الطائف البشري" وتأثيره على العارف بالله.

عند الشيخ البوزيدي، لا يقتصر "طائف من الشيطان" هنا على الوسوسة الشيطانية التقليدية التي تدفع إلى المعاصي الظاهرة. بل يتعدى ذلك ليشمل ما يُسميه "الطائف البشري". هذا الطائف، في فهمه، هو كل ما يمكن أن يخرج العارف بالله من مقام "الحضور" (الجمع) إلى حالة "الغفلة" (الفرق).

الحضور (الجمع): هذا مقام رفيع للعارف، حيث يكون مستغرقاً في شهود الوحدة الإلهية، لا يرى في الوجود إلا الله، متصلاً به اتصالاً كاملاً، وغائباً عن رؤية الأغيار أو تفرق الكثرة. إنه مقام "الجمع" حيث يُجمع القلب على الله وحده.

الغفلة (الفرق): هي النقيض من الحضور. تعني العودة إلى رؤية الكثرة والتفرق في الخلق، والانشغال بما سوى الله. هذا "الفرق" قد لا يكون معصية بالضرورة، بل قد يكون مجرد انشغال مباح يؤدي إلى نقص في كمال الحضور مع الحق.

الطائف البشري: هو أي انشغال بالخلق أو بشؤون الدنيا أو حتى بالذات البشرية، يؤدي إلى خروج العارف من مقام جمعه بالله إلى مقام التفرق والغفلة عن كمال الشهود. هذا الطائف قد يكون كلاماً مع الناس، أو النظر إلى الأمور الحسية، أو التفكير في شؤون الحياة, إنه ليس شيطاناً بالمعنى المعروف، بل هو فعل بشري طبيعي لكنه يُصبح "طائف شيطاني" لأنه يُبعد العارف عن كمال حضوره.

شهود الفرق: يعني رؤية الأشياء بوجودها المنفصل، والغفلة عن وحدتها في الله. هذا هو ما يطرأ على العارف.

تفسير الآية: "إذا مسهم طائف من الشيطان", أي إذا أصابهم هذا الانشغال البشري الذي يُخرجهم من مقام الحضور والجمع, "تذكروا", أي سرعان ما يتذكرون مقامهم الحقيقي، ويتذكرون الله تعالى وكماله وشمول وجوده. "فإذا هم مبصرون", أي يعودون فوراً إلى كمال الحضور والشهود، وتنجلي لهم الحقيقة من جديد، وتتبدد الغفلة.

ويربط الشيخ البوزيدي هذا المفهوم بمعنى النسيان المأخوذ من قوله تعالى: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ" (الكهف: 24), فالنسيان هنا ليس بالضرورة نسيان المعصية، بل هو نسيان الحضور الكامل مع الله، أو

الغفلة عن شهود الحق. فإذا حدث هذا النسيان، فالعلاج هو الذكر الفوري الذي يُعيد العارف إلى مقامه، ويُبصره بالحق بعد أن كان قد مسه "الطائف البشري" فأخرجه عن كمال الحضور. بهذا التفسير، يُقدم الشيخ البوزيدي فهماً عميقاً لدقة مقامات العارفين، وكيف أن أي انشغال، حتى لو كان طبيعياً، يمكن أن يُعد "طائفاً شيطانياً" إذا أخرج القلب عن الحضور الكامل مع الله، مؤكداً على ضرورة اليقظة الدائمة والعودة الفورية إلى الذكر والشهود عند أدنى إحساس بالغفلة.

لا وجود مع وجود الله

كان يقول: "الله الله. لا وجود مع وجود الله, (كان الله ولا شيء معه, وهو الآن على ما عليه كان).

تُكمل هذه العبارة البليغة للشيخ البوزيدي, "الله الله. لا وجود مع وجود الله, (كان الله ولا شيء معه, وهو الآن على ما عليه كان)", تأكيدًا وتعميقًا لمقامه العالي في التوحيد والفناء في شهود الحق. هذه الكلمات ليست مجرد ترديد لعبارات صوفية, بل هي خلاصة لحالة روحية يعيشها العارف, حيث يرتفع عن رؤية الكثرة إلى شهود الوحدانية المطلقة.

هذه العبارة تُعبّر عن التوحيد الخالص الذي ينفي أي وجود حقيقي مستقل لغير الله. تكرار اسم "الله" في البداية هو تعبير عن الاستغراق والذوبان في الذات الإلهية, وكأن الشيخ يُنادي على هذه الحقيقة الكبرى التي ملأت قلبه وبصيرته.

قوله "لا وجود مع وجود الله" لا يعني إنكار وجود المخلوقات الظاهرة, بل يعني نفي الوجود الحقيقي للكثرة, فالمخلوقات هي تجليات لأسماء الله وصفاته, وجودها مستمد منه, وليست قائمة بذاتها. هي كظل لا يمكن أن يوجد بدون صاحب الظل. الإقرار بالوجود الحق المطلق لله وحده سبحانه هو الوجود الواجب لذاته, القائم بذاته, وكل ما سواه هو وجود ممكن, محتاج إلى الله في وجوده وبقائه.

هذا المقام يُحرر العارف من أي تعلق بغير الله, سواء كان ذلك تعلقًا بالمال, الجاه, النفس, أو حتى الأسباب, لأنه يرى أن كل ذلك لا وجود حقيقي له أمام عظمة وجود الله.

"(كان الله ولا شيء معه, وهو الآن على ما عليه كان)"هذه العبارة, التي تُنسب في أصلها إلى النبي ﷺ في حديث شريف, هي أساس مفهوم توحيد الذات في الفكر الصوفي, وتُشكل ركيزة لفهم الأزلية والأبدية الإلهية, وتطبيقها على حال العارف. "كان الله ولا شيء معه" تُشير إلى أزلية الله سبحانه وتعالى, وأنه كان موجودًا بذاته قبل خلق الكون, قبل وجود أي شيء سواه. هذا يؤكد على تفرده بالوجود الأزلي. "وهو الآن على ما عليه كان" هي جوهر شهود الشيخ, فهي تعني أن وجود الله لم يتغير بخلق المخلوقات, فالله لم يُضف إليه الخلق شيئًا, ولم ينقص من وجوده. هو الآن, بعد خلق الأكوان, هو ذاته الأزلية التي كانت قبل الخلق.

بالنسبة للعارف, هذا يعني أن رؤيته للوجود يجب أن تكون على هذا المنوال: أن الله هو الموجود الحقيقي الوحيد, وأن الخلق لا يُغير من هذه الحقيقة شيئًا. فالعارف يرى الكثرة بوصفها تجليات, لكن قلبه لا يرى إلا الوحدانية. هذا يُعطي المريد درسًا عميقًا في التجرد من رؤية الخلق والتعلق بهم, لأنهم "لا شيء" حقيقيًا أمام الوجود الأزلي الأبدي لله.

هذه الكلمات تُبيّن أن الشيخ البوزيدي لم يكن مجرد مُعلم يلقن الأذكار, بل كان عارفًا بالله غارقًا في بحر التوحيد. وهذا هو المقام الذي استوطن فيه يعني كمال المعرفة الإلهية فهو يدرك أن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن, وأن كل الوجود قائم به لا بذاته. قلبه متحرر من كل قيد, فلا يحجبه شيء عن الله, ولا يلتفت إلى غيره, لأن من يرى "لا وجود مع وجود الله" يُصبح إنفاقه وعطائه لله لا للمخلوق, لأن كل ما يحدث هو من "الواحد" الذي لا وجود لغيره, فلا اعتراض على قضائه وقدره.

إن هذه العبارات هي دعوة للسالك إلى تجاوز رؤية الأعيان إلى رؤية العيان (شهود الحق), وإلى الفناء في وحدانية الله, ليكون وجوده كله بالله ولله.

ينفر من كل كلام لا يفيد الاستغراق

كان ينفر من كل كلام لا يفيد الاستغراق في هذا الفن, وكان يقول: "ليس لي من العلم إلا ذكر الله ومعرفة الله".

تُقدم هذه العبارة الموجزة والمحكمة للشيخ البوزيدي, "ليس لي من العلم إلا ذكر الله ومعرفة الله", خلاصة فلسفته الروحية وتأكيدًا على غايته القصوى من العلم والحياة. إنها تُبيّن موقفه من المعارف الدنيوية وتفضيله للعلم الذي يقود إلى الله.

قوله بأنه "ينفر من كل كلام لا يفيد الاستغراق في هذا الفن" يُشير إلى تفضيله للعلم النافع الذي يُعمق الاتصال بالله, مقابل الانشغال بالعلوم الظاهرية أو الجدالات التي تُشتت القلب عن التوحيد. هذه النفرة ليست رفضًا للعلم بحد ذاته, بل هي رفض لما لا يُساهم في الارتقاء الروحي أو يُعيق الوصول إلى مقام الشهود والفناء في التوحيد. فالشيخ يرى أن الوقت والجهد يجب أن يُوجها نحو ما يُقرب العبد من ربه.

"ليس لي من العلم إلا ذكر الله ومعرفة الله", هذه الجملة هي جوهر اعتقاد الشيخ البوزيدي في العلم الحقيقي. إنها تُعلي من شأن العلم بالله على كل العلوم الأخرى, وتُبين أن كل علم لا يقود إلى هذا الهدف هو علم ناقص أو قاصر. ذكر الله ليس مجرد ترديد للكلمات, بل هو دوام حضور القلب مع الله, تذكره في كل حال, في السر والعلن, في الفرح والحزن. هذا الذكر الدائم هو مفتاح تصفية الباطن وتنوير البصيرة وهو الوسيلة الأساسية التي توصل إلى المعرفة.

معرفة الله هي الغاية القصوى. هذه المعرفة ليست مجرد معرفة عقلية نظرية, بل هي معرفة ذوقية, شهودية, قلبية. إنها إدراك حقيقة الله وتجلياته في الكون وفي النفس, بحيث يمتلئ القلب بهيبته, وعظمته, ومحبته, وتوحيده. هذه المعرفة هي التي تُثمر خشية الله, والرضا بقضائه, والتسليم لأمره, والتجرد عن الدنيا.

كان الشيخ يُعطي الأولوية القصوى للعلم الذي يُغذي الروح ويُقربها من خالقها, على حساب أي علم آخر قد يُغذي العقل فقط أو يُركز على الدنيا. الشيخ كان يرى جوهر الدين في العلاقة المباشرة بالله, وليس في الجدالات الفقهية أو الكلامية. يُشير هذا القول إلى أن العلم النافع هو ما يُثمر العمل الصالح والخشية من الله والمعرفة به. فالعلم الذي لا يُحدث هذا الأثر لا يُعد علمًا نافعًا عند الشيخ. هذه هي رؤية العارف الحقيقي, الذي يرى أن كل العلوم الأخرى تخدم في النهاية هذا العلم الأعظم, وإلا فهي حجاب.

باختصار, يُقدم الشيخ البوزيدي هنا تعريفًا للعلم من منظور العارفين, حيث يُصبح العلم الحقيقي مرادفًا للاتصال بالله, وذكره, ومعرفته, وهو ما يُحقق الغاية من الوجود الإنساني.

من لم يعرف الله فهو مغرور

كان يقول: "من لم يعرف الله على طريقة الشهود والعيان فهو مغرور كائنا من كان."

تُعد هذه المقولة للشيخ البوزيدي بمثابة بيان قاطع وتأكيد جازم على المنهج الذي يراه الشيخ هو الطريق الحقيقي لمعرفة الله. إنها تُميز بوضوح بين المعرفة النظرية السطحية والمعرفة العميقة التي تُثمر حالاً وسلوكاً, وتُحذر من الغرور الذي قد يُصيب من يكتفون بالظاهر.

"معرفة الله على طريقة الشهود والعيان", فهذا التعبير يُشير إلى أعلى مراتب المعرفة بالله في الفكر الصوفي, وهي المعرفة التي تتجاوز مجرد الإيمان العقلي أو التقليد, لتصل إلى الشهود أو المشاهدة التي ليست رؤية حسية بالعين, بل هي رؤية قلبية وبصيرة روحية تُدرك بها حقيقة الله وتجلياته في الوجود.

يرى العارف آثار قدرة الله ورحمته وعظمته في كل شيء, وكأنه يرى الله بعين قلبه. أمَّا العيان أو المعاينة فهي مرتبة أعلى من الشهود, حيث يصبح الحق حاضراً في قلب العارف حضوراً يكاد يكون حسياً, لا مجال فيه للشك أو الظن. يُصبح الله بالنسبة له "عياناً" لا غياب فيه.

هذه المعرفة ليست مجرد فكر أو معلومة, بل هي تجربة روحية حية يُذاق فيها حلاوة الإيمان وجمال القرب من الله. هذه المعرفة تُكسِب صاحبها اليقين التام, والطمأنينة, والرضا, والتجرّد من كل ما سوى الله.

ثم إن هذا الجزء من المقولة "فهو مغرور كائنا من كان", هو التحذير القوي الذي يُطلقه الشيخ البوزيدي. وصف "المغرور" لا يُقصد به الإهانة بقدر ما هو تنبيه وإرشاد. فالغرور هنا يُشير إلى من يكتفي بالعلم الظاهري أو الفقهي أو الكلامي دون أن يُثمر هذا العلم يقظة قلبية وحضوراً مع الله, قد يغتر بعلمه ويظن أنه قد وصل.

قد يتوهم الشخص أنه عرف الله وهو لم يتجاوز بعد قشور المعرفة أو ظواهر العبادات. الغرور هو صفة تدور حول "الأنا", بينما معرفة الله الحقيقية تتطلب الفناء عن النفس والتوجه الكلي إلى الحق.

تُشير عبارة "كائنا من كان" إلى أن هذا التحذير لا يستثني أحدًا, سواء كان عالماً, فقيهاً, زاهداً, أو حتى من يُظن أنه من أهل الصلاح إذا لم تتحقق فيه هذه المعرفة القلبية.

هذه المقولة تُعزز فهمنا لمنهج الشيخ البوزيدي في التربية الروحية, حيث يرفع من شأن العلم بالله ويُعتبره أسمى أنواع العلم, الذي يجب أن يُسعى إليه بكل جد. فالمعرفة الحقيقية ليست مجرد حفظ أو فهم, بل هي إدراك باطني يُركز فيها على الجانب القلبي والذوقي. فالغرور والكبر والعجب بالنفس هي من أخطر الأمراض القلبية التي تحجب العبد عن ربه فهم من عوائق السلوك. فمن عرف الله حق المعرفة, ازداد افتقاراً إليه وتواضعاً لنفسه وللخلق ومنهج الشيخ البوزيدي يدعو إلى التواضع الدائم.

باختصار, يضع الشيخ البوزيدي معياراً واضحاً لمعرفة الله, مُبيّناً أن مجرد المعرفة العقلية أو الظاهرية قد لا تكفي, وأن العلم الحقيقي هو ما يُورث شهوداً وعياناً, وإلا كان صاحبه في غفلة عن الحقيقة.

التوحيد الشامل: لا شيء إلا الله

كان يقول: "إذا بقيت للمريد شعرة من جسده خارجة عن الوجود المطلق بحيث لم يثبتها بالله, فهو محجوب عن الله".

يُقدم هذا القول للشيخ البوزيدي، رضي الله عنه، رؤية عميقة ومُتجذرة في فهم التوحيد الخالص والفناء في الوجود المطلق ويُعبّر عن درجة رفيعة من التوحيد الشامل والفناء التام. فهي لا تقتصر على فناء الروح أو القلب في الله، بل تتعدى ذلك لتشمل كل جزء من وجود المريد، حتى أدق وأصغر أجزائه، مثل "شعرة من جسده", وجوهر القول في قوله "خارجة عن الوجود المطلق بحيث لم يثبتها بالله" يعني أن أي جزء من كيان المريد، سواء كان ظاهراً أو باطناً، إذا لم يُدرك على أنه قائم بالله، ومن الله، وراجع إلى الله، فإنه يُعد حاجزاً أو حجاباً عن المعرفة الإلهية الكاملة. إنه دعوة لتجاوز رؤية الأشياء بوجودها المستقل، ورؤيتها كلها قائمة بالحق, وإلا "فهو محجوب عن الله", وهذا يُشير إلى أن أي بقية للذات الفانية، أو أي تعلق بشيء سوى الوجود المطلق لله، يُعد حجاباً يمنع المريد من الرؤية الكاملة والاتصال التام بالله. فالحجاب هنا ليس مادياً، بل هو حجاب إدراك ورؤية قلبية.

هذا المبدأ يُرسّخ مفهوم التوحيد الشهودي والفناء الكلي (الفناء في التوحيد) الذي يُعد من أعلى مقامات السلوك الصوفي. إنه يدعو المريد إلى إفناء كل وجوده الشخصي في وجود الحق، بحيث لا يرى لنفسه ولا لشيء في الكون وجوداً حقيقياً مستقلاً عن وجود الله تعالى. هذا هو الذوبان التام في بحر التوحيد، حيث لا يبقى "أنا" أو "أنت" أو "هو"، بل الله وحده هو الظاهر والباطن. إن بلوغ هذه المرتبة يتطلب تجرداً كاملاً عن الذات وعن كل ما سوى الله، وهو الطريق الذي كان يؤكد عليه الشيخ البوزيدي في منهجه للتخلية قبل التحلية, وفي اختصاره للطريق عبر المحبة والانتساب، لإيصال المريدين إلى هذا المستوى الرفيع من الإدراك والتوحيد

دقة المعيار في طريق الأولياء

كان يقول : "إن الولاية تمنعها شعرة"

يُقدم قول الشيخ البوزيدي، رضي الله عنه هذه العبارة المكثفة والعميقة التي تكشف عن دقة المعيار وشدة الحساب في طريق الولاية الكاملة. هذه العبارة ليست تقليلاً من شأن الولاية أو الوصول إليها، بل هي تأكيد على متطلبات الكمال والاصطفاء الإلهي. فالشعرة هنا هي كناية عن أدنى وأصغر شيء، وهي رمز لأي بقية من النقص، أو التعلق بغير الله، أو حظ من حظوظ النفس، أو أدنى التفاتة للذات أو للدنيا قد تتبقى في المريد. وجوهر القول إن الكمال المطلق شرط الولاية الكاملة.

إن الولاية، بالمعنى الذي يقصده كبار الأولياء والعارفين، تتطلب تطهيراً تاماً وتجرداً كاملاً. أي شوائب، مهما بدت صغيرة أو غير ذات أهمية في نظر عامة الناس، يمكن أن تكون حجاباً يمنع المريد من بلوغ الدرجات العليا من القرب الإلهي والاصطفاء. يُشير هذا القول إلى أن طريق الأولياء ليس فيه مجال للتهاون أو التغافل عن أدق التفاصيل في تزكية النفس. فالكمال لا يقبل أنصاف الحلول أو البقايا.

يرتبط هذا القول ارتباطاً وثيقاً بمقولته السابقة عن "الشعرة" التي تحجب عن التوحيد المطلق. فالولاية الحقة هي ثمرة توحيد خالص وفناء تام في الله، حيث لا يبقى وجود لأي شيء سوى الحق سبحانه. هذا المبدأ يُبرز أن الولاية الكاملة ليست مجرد موهبة تُعطى، بل هي مقام يُبلغ بالصدق التام، والتجرّد الكامل، والتطهر من كل ما سوى الله، حيث تُفنى حتى أصغر بقايا الذات في الوجود المطلق للحق تعالى. إنها دعوة للسالكين

إلى التدقيق في محاسبة النفس، وعدم التساهل مع أي شيء قد يعيق الوصول إلى القمة في طريق القرب الإلهي.

لا يؤثر شيئا من النوافل على ذكر الله

كان لا يؤثر شيئا من النوافل على ذكر الله ويقول: "ذكر الله والبأس لا يلتقيان".

ذكر الله هو أولوية الشيخ البوزيدي وملاذه في الشدة. تُقدم هذه العبارة المقتضبة والعميقة جوهر منهج الشيخ البوزيدي الروحي وتأكيدًا على مركزية الذكر في حياته وكمصدر للقوة والطمأنينة.

أولوية الذكر على النوافل يُبرز مدى أهمية الذكر في منهج الشيخ البوزيدي. "النوافل" هي العبادات المستحبة الزائدة عن الفرائض (مثل صلاة الضحى, قيام الليل, الصيام غير الواجب, قراءة القرآن). بينما تُعد هذه النوافل عظيمة الأجر في الإسلام, إلا أن الشيخ كان يرى أن ذكر الله (دوام الحضور القلبي واللساني مع الله) له الأسبقية والأثر الأعمق في بناء العلاقة مع الخالق. هذا لا يعني إهمال النوافل, بل يعني أن الذكر كان هو الأساس الذي تُبنى عليه جميع العبادات, وهو المحرك الأساسي لحياة الشيخ الروحية. فبالذكر يُصفى القلب, وتُقوى الروح, ويُصبح العبد أكثر قربًا من ربه, مما يُسهل عليه أداء جميع العبادات بقلب حاضر وخشوع.

"ذكر الله والبأس لا يلتقيان" هذه الجملة هي حكمة بليغة تُعبر عن سر قوة الذكر, وفوائده العظيمة, خاصة في أوقات الشدة والمحن. البأس يُشير إلى الشدة, الضيق, الحزن, الخوف, المصائب, وكل ما يُثقل على النفس ويُرهقها. "لا يلتقيان", هذه العاتق الواضح يُشير إلى التناقض الجوهري بين حال الذكر وحال الضيق.

عندما يكون القلب مشغولًا بذكر الله, فإنه يمتلئ بالسكينة والطمأنينة, ويُصبح على ثقة بأن الله هو المدبر لكل أمر, وأن كل شيء بيده. هذه الثقة تُزيل الخوف والقلق من القلب.

الذكر هو وصل العبد بمصدر القوة المطلقة, فلما يتصل العبد بالله, يستمد منه القوة التي تُمكنه من مواجهة أي بأس أو شدة, والقلب الممتلئ بذكر الله لا يجد فيه البأس مكانًا, لأن وجود الله فيه يُطرد كل ما سواه من مخاوف وأحزان.

الاستغراق الكلي في الله يُظهر أن الشيخ كان في حالة دائمة من الحضور مع الله, بحيث لم يكن يُفضل أي شيء على هذه العلاقة المباشرة, فإيمانه بأن الذكر يرفع البأس دليل على يقينه بأن كل القوة والسند من الله وحده.

لم يكتفِ الشيخ بالقول, بل كان حاله يُبرهن على صحة كلامه؛ فلقد رأينا كيف واجه المصائب (مثل مقتل ابنه) بصبر وثبات, وكيف كان يُواجه الحسد والمصاعب بقلب مطمئن.

هذا القول يُعد درسًا لمريديه ولنا جميعًا في أن نجعل ذكر الله دائمًا في حياتنا, فهو مفتاح الفرج, ومصدر الطمأنينة في كل الأحوال.

باختصار, يُقدم لنا الشيخ البوزيدي رؤية للذكر لا كعبادة إضافية, بل كجوهر الحياة الروحية, وملاذ العبد من كل بأس وضيق, وهو السبيل لعيش حالة دائمة من القرب الإلهي.

الذكر يطفئ غضب الله

كان يقول : "من أراد أن يطفئ غضب الله فعليه بذكر الله".

تُقدم هذه المقولة القصيرة والعميقة للشيخ البوزيدي, جوهرًا آخر من تعاليمه الروحية وتأكيدًا على قوة ذكر الله كسبيل للتوبة والرحمة الإلهية. إنها تُبيّن العلاقة الوثيقة بين حال العبد وقلبه وبين استجلاب رضا الله.

"غضب الله" في السياق الإسلامي يُشير إلى سخط الله على العبد نتيجة للمعصية, الغفلة, البعد عن أوامره, أو التقصير في حقوقه. هذا الغضب قد يتجلى في حجب البركة, أو وقوع المصائب, أو الإحساس بالضيق والشقاء, أو حتى في العقاب الدنيوي والأخروي. فالإنسان الذي يُعرض عن ربه ويُغرق في المعاصي, يجد نفسه بعيدًا عن رحمة الله, وبالتالي يُعرض نفسه لغضبه.

يُقدم الشيخ البوزيدي العلاج الأمثل لهذا الغضب: "فعليه بذكر الله". الذكر هنا لا يُقصد به مجرد ترديد الألفاظ, بل هو حضور القلب مع الله, والانشغال به, والتوبة إليه, والعودة إلى طاعته. ذكر الله يُمكن أن يُطفئ غضب الله بعدة طرق منها التوبة والاستغفار فالذكر غالبًا ما يتضمن الاستغفار والتوبة, وهما السبيل المباشر لمحو الذنوب التي تُسبب غضب الله. عندما يتوب العبد ويعود إلى ربه, يفتح الله له باب الرحمة والمغفرة.

الذكر يُصفّي القلب ويُطهره من أمراض الغفلة, الكبر, الحسد, وغيرها من الصفات التي تُبعد العبد عن الله وتُسبب سخطه. القلب الممتلئ بذكر الله يصبح قلبًا خاشعًا, منيبًا, مُحبًا, ما يُحوّل حال العبد من البعد إلى القرب. فذكر الله هو من أحب الأعمال إليه. عندما يُكثر العبد من ذكر ربه, يُصبح محبوبًا لديه, ومن أحبه الله, غمره برحمته ورضاه, وأبعد عنه غضبه. القلب الذاكر يجد الطمأنينة والسكينة, وهذه الطمأنينة هي نقيض الضيق والشقاء الناتجين عن غضب الله.

الشيخ لا يُقدم حلاً نظريًا, بل يُعطي توجيهًا عمليًا وشمولياً, إذا أردت رفع غضب الله, فليس هناك طريق أسرع وأنجع من ذكر الله بكل معانيه. هذه المقولة تُعزز مجددًا مكانة الذكر في منهج الشيخ البوزيدي كقوة أساسية للتغيير الروحي والتقرب من الله. هي دعوة لكل عاصٍ أو غافل للعودة إلى الله عبر باب الذكر, مع يقين بأن الله غفور رحيم.

باختصار, يرى الشيخ البوزيدي أن ذكر الله هو المفتاح الذي يُفتح به باب الرحمة الإلهية ويُطفأ به غضب الله, لأنه يُصلح القلب ويُعيد العبد إلى فطرته وطاعته, فيُصبح مستحقًا لرضا خالقه.

فضل ذكر الله ومعرفته الخاصة

لا يبرهن في مجلسه إلا على فضل ذكر الله ومعرفة الله الخاصة .

تُشير هذه العبارة إلى التركيز المطلق والمنهج الواضح للشيخ البوزيدي في مجالسه, حيث كان يصبّ كل جهده في إبراز فضل ذكر الله والمعرفة الخاصة به. هذا يُعكس رؤيته العميقة لجوهر الدين والغاية من الوجود الإنساني.

عندما يُقال إن الشيخ "لا يبرهن في مجلسه إلا على فضل ذكر الله", فهذا يُوضح أن الذكر لم يكن مجرد عبادة ثانوية في منهج الشيخ, بل كان محور التربية الروحية, فكل تعاليمه, توجيهاته, ونصائحه كانت تدور حول أهمية الذكر كسبيل لتزكية النفس وتطهير القلب. ويرى أن الذكر هو مفتاح للوصول والوسيلة الأساسية لفتح بصيرة القلب والارتقاء في المقامات. فليست الصلاة والصيام والحج والزكاة إلا صوراً من الذكر إذا أُديت بحضور القلب, فالذكر إذا هو جوهر العبادة.

هذا التركيز على الذكر يدل على أن الشيخ كان يُدرك أنه المحرك الأول لكل خير, وهو الذي يُورث الطمأنينة ويُبعد البأس ويُطفئ غضب الله, كما ذكرنا سابقا.

المحور الثاني في مجالسه هو "معرفة الله الخاصة". هذه المعرفة ليست المعرفة العقلية الباردة التي يُمكن أن يحصل عليها أي دارس للعقيدة, بل هي معرفة ذوقية وشهودية يُشار إليها أحياناً بالعلم اللدني أو المعرفة الباطنية. هي معرفة تُنير القلب وتكشف الحقائق الوجودية, وتُؤدي إلى اليقين المطلق. فالذكر الدائم والتجرد عن الدنيا يُصفّي الباطن ويُهيئه لاستقبال هذه المعرفة الخاصة التي يُكرم الله بها عباده المقربين. كان الشيخ يدعو إلى رؤية الله في كل شيء, وأن لا وجود حقيقي لغيره, وهذا هو جوهر المعرفة الخاصة التي ترفع الحجب وتُوصل إلى مقام الشهود والعيان.

الشيخ البوزيدي لم يكن يتشتت في مواضيع جانبية, بل كان لديه هدف واضح ومنهج ثابت في مجالسه وهو التركيز على ما يُقرب العبد من ربه مباشرة. هذا التخصص في البرهان يُشير إلى أن الشيخ كان يهدف إلى بناء شخصيات روحية عميقة, لا مجرد تعليم أحكام ظاهرية. ولم يكن يُقدم علمًا نظريًا فقط, بل علمًا يُثمر حالاً وسلوكاً, ويقود إلى تجربة روحية حية. في زمن قد تكثر فيه الجدالات والخلافات حول الفروع, كان الشيخ يُعيد الناس إلى أصول الدين وجوهره, وهو العلاقة المباشرة مع الله.

باختصار, كانت مجالس الشيخ البوزيدي بمثابة مصنع للرجال, حيث يُصقلون بالذكر, ويُفتح عليهم بأنوار المعرفة الخاصة, ليصبحوا من أهل الله حقاً.

الله قل وذر الوجود وما حوى

كان أكثر ما يحلو له من أشعار العارفين ويكثر وكزة قول سيدي أبي مدين التلمساني رضي الله عنه:

الله قل وذر الوجود وما حوى *** إن كنتَ مرتاداً بلوغَ كمالِ

فالكلُّ دون اللهِ إن حقّقتهُ *** عدمٌ على التفصيل والإجمال

إلى أن يقول:

فالعارفونَ فنوا ولمّا يشهدوا *** شيئاً سوى المتكبر المتعال

ورأوا سواهُ على الحقيقةِ هالكاً *** في الحال والماضي والاستقبال.

يُعزز هذا فهمنا لعمق مقام الشيخ البوزيدي في التوحيد, فهو لم يكن يكتفِ بالقول النثري, بل كان يتذوق ويُكثر من الإشارة إلى أشعار العارفين التي تُعبّر عن ذات المقام الذي يعيشه. اختياره لقصيدة سيدي أبي مدين التلمساني, وخاصة هذه الأبيات, يُقدم خلاصة مركزة لمذهبه الروحي: الفناء عن الوجود في شهود الحق.

"الله قل وذر الوجود وما حوى *** إن كنتَ مرتاداً بلوغَ كمالِ" هذا الشطر الافتتاحي هو دعوة صريحة ومباشرة من أبي مدين (والشيخ البوزيدي من خلاله) إلى التوحيد المطلق والتجرّد الكلي.

"الله قل" ليس مجرد ذكر باللسان, بل هو أمر بأن يكون الله هو الشغل الشاغل للقلب واللسان والهمة. أن تُفرد الله بالذِكر, وأن تجعل توجهك الكلي إليه.

"وذر الوجود وما حوى" هذا هو جوهر الفناء. اترك كل ما سوى الله, كل الكثرة, كل المخلوقات, كل المتعلقات, وكل ما يحتويه الكون من زينة.

"إن كنتَ مرتاداً بلوغَ كمالِ" يُشير إلى أن هذا التجرّد وهذا الإفراد لله هو السبيل الوحيد للوصول إلى الكمال الروحي, والذي لا يتحقق إلا بمعرفة الله حق المعرفة. فبدون هذا التجرّد, تبقى النفس مُقيّدة ومحجوبة عن الحقيقة.

"فالكلُّ دون اللهِ إن حقّقتهُ *** عدمٌ على التفصيل والإجمال" هذا البيت يُقدم الحقيقة الكونية التي يراها العارف بالله.

"الكلُّ دون اللهِ" جميع المخلوقات, بكل تفاصيلها وتنوعها.

"إن حقّقتهُ" أي إذا نظرتَ إليها بعين البصيرة والتحقيق, لا بعين الظاهر فقط. إذا أدركتَ حقيقتها كما هي.

"عدمٌ على التفصيل والإجمال" هذا هو جوهر وحدة الوجود في الشهود, أو بالأحرى, وحدة الفاعل الحقيقي. فالعارف يرى أن كل ما سوى الله هو لا شيء حقيقيًا بذاته. وجوده مستعار من وجود الله, وظاهر من ظهور الله. فهو "عدم" بمعنى أنه لا وجود ذاتي له مستقل عن خالقه. هذا يُطبق على كل شيء, سواء نظر إليه تفصيلاً (كل جزء بمفرده) أو إجمالاً (الكون كله).

"فالعارفونَ فنوا ولمّا يشهدوا *** شيئاً سوى المتكبر المتعال" هذا البيت يُلخص حال العارفين الحقيقيين والمقام الذي وصلوا إليه.

"فالعارفونَ فنوا" الفناء هنا ليس فناءً جسديًا, بل هو فناء عن رؤية النفس, وعن رؤية الخلق كفاعلين مستقلين, وعن رؤية الكثرة. يتلاشى الإحساس بـ "الأنا" وتذوب في مشاهدة الحق.

"ولمّا يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال" هذه هي ثمرة الفناء. عندما يفنى العارف عن نفسه وعن رؤية الخلق, لا يعود يرى إلا الله وحده.

"المتكبر المتعال" يُشير إلى عظمة الله المطلقة, التي لا يُضاهيها شيء ولا يُشبهها شيء, والذي لا يرى وجودًا حقيقيًا إلا لذاته.

"ورأوا سواهُ على الحقيقةِ هالكاً *** في الحال والماضي والاستقبال" هذا البيت يُعمق مفهوم "العدم" الذي ذُكر سابقًا, ويُطبقه على الأزمنة الثلاثة.

"ورأوا سواهُ على الحقيقةِ هالكاً" لم يروا غير الله إلا وجودًا زائلًا, باطلًا, فانيًا. هذا الإدراك ليس مجرد فكرة, بل هو رؤية حقيقية بالبصيرة.

"في الحال والماضي والاستقبال" هذا التأكيد يُشير إلى أن هذا "العدم" أو "الفناء" ليس خاصًا بزمن معين. كل ما سوى الله كان فانيًا في الماضي (لم يكن), وهو فانٍ في الحال (وجوده مستمد من الله وغير مستقل), وسيكون فانياً في الاستقبال (سيزول). وحده الله هو الوجود الدائم المطلق.

اختيار الشيخ البوزيدي لهذه الأبيات يُبرز أنه كان من أصحاب التوحيد الشهودي المطلق, الذي لا يرى في الوجود إلا الواحد الأحد, ويدعو إلى التجرد الكامل من الدنيا ورؤية الخلق من أجل الوصول إلى الكمال الروحي ومعرفة الله حق المعرفة. كان يعيش ما يُلقنه لمريديه, ويجسد المعاني السامية لشعر أبي مدين التلمساني.

الحقيقة والشريعة: جسد وأعضاء

قال رضي الله عنه: "الحقيقة جسد والشريعة أعضاؤها, وهل يليق بالجسد أن يكون بدون أعضائه؟", ثم تلا الآية: "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ", (آل عمران: 31).

هذا القول للشيخ البوزيدي، رضي الله عنه، يقدم رؤية عميقة ومتكاملة للعلاقة بين الحقيقة والشريعة، وهي علاقة جوهرية في الفكر الصوفي الأصيل. هذا التشبيه البليغ يوضح أن الشريعة هي أساس لا غنى عنه للحقيقة. فالشريعة (الأوامر والنواهي الظاهرة، الأحكام الفقهية، العبادات) هي بمثابة الأعضاء التي تُمكن الجسد (الحقيقة) من الوجود والعمل. الجسد بلا أعضاء جسد ناقص، بل وميت. فلا يمكن للحقيقة أن تقوم بذاتها دون التزام بالشريعة. الحقيقة هي روح الشريعة وجوهرها, فالحقيقة (البواطن، المعارف الإلهية، التوحيد الخالص، المقامات الروحية) هي الروح التي تُحيي الشريعة وتُعطيها معناها العميق. الشريعة بلا حقيقة قد تصبح مجرد رسوم وأشكال لا روح فيها. الشيخ البوزيدي، من خلال هذا التشبيه، يؤكد على الوحدة العضوية والترابط الوثيق بين الظاهر والباطن، بين العبادة الظاهرية والمعرفة الباطنية. لا يمكن الفصل بينهما، فكل منهما يكمل الآخر ويُضفي عليه الوجود والفعالية. هذا المنهج يتفق مع ما عليه كبار مشايخ الصوفية المحققين الذين يرفضون أي فصل بين الحقيقة والشريعة، ويعتبرون من يدعي الحقيقة دون التزام بالشريعة زنديقاً. ويُعزز الشيخ البوزيدي قوله هذا بتلاوة الآية الكريمة: "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ" (آل عمران: 31), هذه الآية تُقدم البرهان القرآني القاطع على ما ذهب إليه,

حب الله مشروط باتباع النبي. الآية تربط محبة الله للعبد بمحبة العبد للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الأخير لا يتحقق إلا باتباع سنته وشريعته. فالشريعة إذا, هي سبيل التحقق, وهي المنهج العملي المتمثل في سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اتباع هذه السنة هو السبيل الوحيد لتحقيق الحقيقة والوصول إلى مقام محبة الله.

قول الشيخ البوزيدي هذا هو دعوة واضحة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، وإلى إدراك أن التمسك بالظاهر هو الطريق للوصول إلى علم الباطن. فالشريعة هي البوابة إلى الحقيقة، ولا يمكن الوصول إلى كمال المعرفة الإلهية والاتصال بالله إلا من خلال الالتزام التام بجميع أوامر الشريعة ونواهيها.

مقام الفردانية عند الشيخ البوزيدي

قال رضي الله عنه, أن أخاه في الله الشيخ محمد الهبري, رضي الله عنه, سأله, حالة اشتغاله بالاسم الأعظم, عن مقام الفردانية, فقال له الشيخ البوزيدي: "إن الفردانية تعرفها حين تطرأ عليك". وكان الشيخ محمد الهبري آنذاك مبتدأً في السير إلى الله والشيخ البوزيدي منتهي.

قدَّم هذا القول رؤية عميقة حول طبيعة مقام الفردانية، وهو من أعلى المقامات الروحية في التصوف. عندما سُئل الشيخ البوزيدي عن هذا المقام الرفيع، لم يُقدم تعريفاً نظرياً أو شرحاً مفصلاً لسماته، بل أجاب إجابة حاسمة ومعبرة عن طبيعة المعرفة الصوفية الحقيقية. ومعنى جوابه: الفردانية مقام ذوقي لا نظري. هذا الجواب يؤكد أن مقام الفردانية ليس معرفة تُكتسب بالدراسة أو بالوصف اللفظي، بل هو تجربة روحية باطنية تُفرض على السالك قسراً، وتُدرك بالذوق والشهود المباشر, ولا يمكن أن يُشرح لشخص لم يذق طعمها ما هي الفردانية. كما أنها ليست شيئاً يسعى إليه السالك بجهوده المجرد بل تطرأ عليه، هي فيض إلهي وتجلٍّ رباني يهبط على قلب المريد في وقت يحدده الله. هي هبة إلهية لا سعي ذاتي محض.

الفردانية في التصوف تُشير إلى مقام ينفرد فيه العبد بربه، وينقطع عن كل ما سواه، ويصبح متفرداً في وجوده بالله، فلا يرى شريكاً له في معرفته أو قربه من الله. هذا الانفراد هو جوهر التوحيد الخالص، حيث لا بقية للذات أو التعلق بغير الله. فمقام الفردانية إذا هو قمة السير وغاية الوصال. فبعد السير في مراتب

الوحدة المتعددة (وحدة الشهود، وحدة الوجود)، يصل السالك إلى مقام يتفرد فيه بالحق، فلا يرى إلا فرداً واحداً وهو الله. وهذا المقام يقتضي زوال كل الأغيار والعلائق.

جواب الشيخ البوزيدي يُلخص أن معرفة مقام الفردانية لا تتم عبر التعلم أو السؤال، بل عبر التحقق الروحي الذاتي وتجلي الفيض الإلهي الذي يغمر قلب السالك ويُعلمه بالذوق ما لا يُدرك بالعبارة. إنه تأكيد على أن بعض الحقائق الصوفية العميقة لا يمكن أن تُنال إلا بتجربة باطنية مباشرة.

البسط وإظهار الحقائق عند الألم

كان رضي الله عنه, كثيرا ما يستولي عليه البسط وإظهار الحقائق إذا أصابه الألم. ومن العجب أن دخل عليه مريدوه أثناء مرضه الذي أصابه, وهو الشلل النصفي, فلما تكلموا معه وهم في أسف على ما أصابه, وجدوه منشرح الصدر. ومن جملة ما أخبرهم به أنه قال: "منذ دخلت الطريق لم أجد عبارة أفصح وأشفى مما وجدت في هذه الليلة, وذلك أنني كنت نائما فاستيقظت وأمسست بيدي المتحركة هذه اليد المعدومة الحركة, فظهر لي أنها يد أجنبية, حيث لم أحسّ بها فقبضت عليها, وناديت على أهل البيت أن يوقدوا المصباح, فلما أوقدوه وجدت نفسي قابضا على يدي بيدي, لا غير, فتحيرت في ذلك وقلت: "يا سبحان الله... هذا حال من لا يعرف مولاه وهو معه ولا يراه".

هذه لمحة عميقة عن حال الشيخ البوزيدي، رضي الله عنه، وكيف أن الألم والمرض كانا له وسيلة لفيض روحي وبسط في الحقائق، لا مصدراً للضيق أو الانقباض. يُلاحظ أن الشيخ كان كثيرا ما يستولي عليه البسط وإظهار الحقائق إذا أصابه الألم, وهذه خاصية للعارفين بالله؛ فالشدائد لا تُقعدهم، بل تزيدهم قرباً وتجلياً. يتجلى ذلك بوضوح عندما دخل عليه مريدوه أثناء مرضه الذي أصابه، وهو الشلل النصفي. ورغم أسفهم لما حلّ به، وجدوا الشيخ منشرح الصدر، وهي حالة تتناقض تماماً مع طبيعة المرض وآلامه. هذا الانشراح دليل على ثباته الروحي العميق، ورضاه بقضاء الله، وأن باطنه لم يتأثر بما أصاب ظاهره.

يروي الشيخ لمريديه تجربة باطنية عظيمة حدثت له في تلك الليلة من مرضه، تُظهر كيف تحول الألم إلى بوابة للمعرفة, يذكر أنه استيقظ من نومه، وأمسك بيده المتحركة يده المشلولة، فوجدها يداً أجنبية، حيث لم يحسّ بها. هذا الشعور بانفصال جزء من جسده عنه هو تجربة صادمة ومحيرة على المستوى الحسي.

طلب من أهل البيت إيقاد المصباح، ولما أوقدوه، وجد نفسه قابضاً على يده بيده، لا غير. هنا يختفي الإحساس بالانفصال، وتعود الرؤية الظاهرية لتُثبت أن كلتا اليدين جزء منه. هذه التجربة الجسدية العادية (الإحساس باليد المشلولة كغريبة) تحولت عند الشيخ إلى بوابة لشهود حقيقة روحية عميقة. لقد أوجست فيه حيرة، لكنها كانت حيرة العارف الذي يرى ما وراء الظاهر. فقال: "يا سبحان الله... هذا حال من لا يعرف مولاه وهو معه ولا يراه".

الدرس المستفاد أن الله معنا ولا نراه. هذا هو جوهر التجربة وقمة المعرفة التي حصل عليها الشيخ من ألمه, وترك لنا تشبيها بديعا لحال الغافل عن الله, اليد المشلولة التي شعر بها كأنها غريبة عنه، بينما هي جزء لا يتجزأ منه، هي رمز لحال الإنسان الذي يغفل عن وجود الله معه في كل لحظة، وفي كل ذرة من كيانه، وفي كل جزء من الوجود، ومع ذلك لا يراه (لا يشهد وجوده أو لا يدرك قربه). إن الله تعالى "معنا" بوجوده، بعلمه، بقدرته، وفيض نوره، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ولكنه لا يراه الكثيرون بسبب حجب الغفلة والجهل بالحقائق.

الشيخ البوزيدي، من خلال تجربته الشخصية مع الشلل، لم يجد فيها معاناة وحسب، بل وجد فيها فتحاً عظيماً وبصيرة جلية دلته على عمق الحقيقة, أن الغفلة عن الله تشبه شعور المرء بيده كأنها غريبة عنه، بينما هي جزء لا يتجزأ منه. إنها دعوة قوية لشهود القرب الإلهي الدائم.

أوقاته معمورة بالله

بالجملة: كانت أوقاته معمورة بما يقرِّبه إلى الله عز وجل.

هذه الجملة المختصرة والجامعة, تُعدّ خلاصة شاملة لحياة الشيخ البوزيدي الروحية, وتُضيء على الهدف الأسمى الذي كان يُسيّر وجوده. إنها تُقدم صورة للعارف الذي جعل كل لحظة من حياته وسيلة للتقرب من خالقه.

هذه الكلمة تُوحي بالازدهار, والامتلاء, والحياة. أوقات الشيخ لم تكن تمر سُدى, ولا كانت فارغة من المعنى أو الهدف. بل كانت ممتلئة بالعمل, الذكر, الفكر, والتوجه الدائم نحو الله. هذا يعني الاستغلال الأمثل للوقت. لم يُضيّع الشيخ وقته في الغفلة, اللغو, أو المباحات الزائدة. بل كانت كل لحظة مُكرسة لغاية أسمى.

حياته لم تكن عبارة عن فترات متقطعة من العبادة, بل هي استمرارية في الاتصال بالله, سواء بالذكر, أو الفكر, أو الخدمة, أو التربية. الأوقات المعمورة بالقرب الإلهي تُصبح أوقاتاً مباركة, تُثمر الكثير في القليل.

"بما يقرّبِه إلى الله عز وجل"

هذا الجزء يُحدد الوجهة والغاية الوحيدة لكل ما كان يفعله الشيخ. لم يكن عمله دنيويًا بحتًا, ولا حتى مجرد عبادات روتينية. بل كان كل شيء, كبيرًا كان أم صغيرًا, موجهًا نحو هدف واحد: التقرب إلى الله:

من العبادات المفروضة والنوافل وليكن أداؤها بقلب حاضر وبإخلاص تام. كانت هذه هي جوهر علمه وغايته. خدمة الخلق ومساعدة المحتاج, إصلاح ذات البين, تعليم المريدين, التعامل بلطف مع الآخرين؛ كل ذلك كان بنية التقرب إلى الله وطلب مرضاته. الزهد والتجرد والتخلي عن متاع الدنيا كان وسيلة لتحرير القلب من قيودها, ليتفرغ للقرب من الله. الصبر والتسليم ومواجهة المصائب كان بمثابة وسيلة لتعميق التسليم والرضا بالله, وهو ما يُقرب العبد من ربه.

هذه الجملة تُعدّ تلخيصًا شاملاً لشخصية الشيخ البوزيدي كولي لله وعارف به وتُبيّن أن الشيخ قد أدرك الغاية الحقيقية من وجوده, وهي العبودية لله والتقرب منه. لا يقتصر قربه من الله على جانب واحد (كالعبادة الظاهرة), بل يشمل جميع جوانب حياته: قلبه, لسانه, أفعاله, وحتى طريقة تعامله مع الناس والابتلاء الذي واجهه. القدوة الحسنة تُقدم نموذجًا حيًا للمؤمن الذي يُمكنه أن يُحوِّل كل لحظة من حياته إلى عبادة وتقرب, حتى في أبسط الأمور اليومية. فالقرب من الله هو السعادة الحقيقية والفلاح في الدنيا والآخرة.

باختصار, هذه الجملة تُؤكد أن حياة الشيخ البوزيدي كانت متجهة بالكلية نحو الله, فكانت أوقاته كلها مثمرة ومباركة, لأنه جعلها معمورة بما يُقربه إلى خالقه.

﴿ الفصل السابع: الزهد, التربية, كسر النفس ﴾

البرنسان من الله وإليه

تُقدم هذه الحادثة مثالاً حيًا على زهد الشيخ البوزيدي العميق وتجرده عن الدنيا, وكيف أن عطائه كان فوريًا ومباشرًا للمحتاجين, دون أي تعلق بالمال أو المتاع. إنها تُبرز حكمته في التعامل مع العطاء, وصدق عبوديته لله, والأثر الباقي لأفعاله.

كان معروفا عن الشيخ محمَّد البوزيدي بزُهده وتجرده عن الدنيا, لا يقف عند متاعها ولا يلتفت إلى زخارفها. ورغم فقره وزهده, لم يكن ليرد الهدية ولم يكن ليحتفظ بها, بل يوزعها على من هو أكثر منه حاجة.

ففي أحد الأيام جائه مريده, أحمد بن إسماعيل, وقال له: -إن الحاكم الفرنسي يطلب حضورك إليه", فأجابه الشيخ متعجبًا: "وما لي وللحاكم الفرنسي؟ وما حاجته بي؟", فردّ عليه المريد: "يريد فقط أن يراك ويستطلع أحوالك".

عندها, استجمع الشيخ قواه, رغم تعبه وضعفه, وتوجه بصعوبة إلى مبنى الإدارة. وهناك, استُقبِل من طرف رجل من الأهالي المسلمين أدخله إلى مكتب الحاكم, حيث دارت بينهما دردشة قصيرة. وفي نهايتها, قدّم الحاكم للشيخ هدية عبارة عن برنسين فاخرين من أجود الأنواع.

وبعد مغادرته المبنى, لم يمشي الشيخ إلا خطوات قليلة حتى رأى رجلاً شبه عارٍ يرتجف من البرد, فأخرج أحد البرنسين ووضعه عليه. وسار قليلاً, فظهر له رجل آخر في مثل حال الأول, فكساه بالبرنس الثاني. ثم رجع إلى زاويته كما خرج, لا يحمل من الدنيا شيئًا.

وبعد ذلك, أرسل الحاكم الفرنسي أحد موظفيه إلى زاوية الشيخ ليعرف ماذا فعل الشيخ بالبرنسين. فلما جاء, وجده على حاله المعتادة – لباسًا وهيئة – فسأل الفقراء, فأخبروه بما حدث, وأضافوا أن الشيخ قال: "جاء البرنسان من عند الله, وعادا إليه, والله لا يضيع أجر المحسنين".

طلب غير متوقع من الحاكم الفرنسي لرؤية الشيخ البوزيدي واستغراب الشيخ يُبرز مدى عدم اهتمامه بالجاه والسلطة الدنيوية أو التواصل معها, فهو رجل منقطع إلى الله. ورغم تعبه وضعفه, يلبّي الدعوة, مما يُظهر امتثاله للطلب دون تكلف أو تمنّع. عند اللقاء, يقدم الحاكم الفرنسي هدية "برنسين". هذه الهدية, التي تُعبر عن تقدير أو محاولة لكسب ود الشيخ, كانت اختبارًا لمدى تعلقه بالدنيا, وهي في الحقيقة محاولة يائسة منها لشراء ذمته, ويظهر جليًّا أن الشيخ انزعج من تلك الدعوة.

المشهد الأبرز في القصة هو تصرف الشيخ البوزيدي بعد مغادرة مبنى الإدارة. لم يحتفظ بالبرنسين, بل لما مرَّ على فقير أخذ أحد البرنسين وأعطاه إياه, ثم يكرر الفعل مع فقيرٍ آخر. هذا العطاء الفوري يكشف عن زهد عملي وتجرُّد مطلق. الشيخ لا يرى كغيره في الهدايا ملكية شخصية, بل هي أمانة يجب توزيعها على من هو أحق بها, فهو يفضِّل المحتاجين على نفسه, بالرغم من أنه كان فقيرًا وزاهدًا.

لم ينتظر الشيخ حتى يعود إلى زاويته أو يبحث عن محتاج, بل أعطى بمجرد رؤية الحاجة, ما يدل على يقظة قلبه وعمق رحمته, فرجوعه إلى زاويته كما خرج, لا يحمل من الدنيا شيئًا, تلخص جوهر حياته في التجرد التام من متاع الدنيا, فهو لم يمتلك شيئًا ولم يتعلق بشيء.

عندما أرسل الحاكم الفرنسي موظفًا للاستفسار عن مصير البرنسين, تأكَّد للجميع ما كان عليه الشيخ. إجابة الفقراء, إضافة إلى قول الشيخ: "البرنسان من عند الله وإليه عادا, والله لا يضيع أجر المحسنين", التي تُعزز عدة مفاهيم, منها: أنَّ الشيخ يُرجع كل شيء إلى الله, فالبرنسان جاءا من عند الله (عن طريق الحاكم) وعادا إليه (عن طريق الفقراء). المال أو المتاع في نظر العارف بالله هو مجرد وسيلة لإيصال الخير, لا غاية يُحتفظ بها. اليقين بالجزاء الإلهي: "والله لا يضيع أجر المحسنين" تُظهر إيمان الشيخ بأن العطاء في سبيل الله لا يضيع, وأن أجره عند الله تعالى.

هذه القصة تُقدم درسًا بليغًا في قيمة الزهد الحقيقي, الذي ليس مجرد حرمان من الدنيا, بل هو تجرُّد من التعلق بها, وتوجيه لمواردها في سبيل الله ولخدمة خلقه. إنها شهادة على أن أعظم الغنى هو غنى النفس بالله, وأن أكثر الناس بركة هم من يُعطون دون توقع مقابل, وينفقون ما في أيديهم بلا تردد.

جبة الشيخ ووعي المريدين
تقدم هذه الحادثة البسيطة والمؤثرة لمحة عميقة عن زهد الشيخ البوزيدي وكيف أن تواضعه وحالته المعيشية التي تتجلَّى بالقناعة كانت درسًا عمليًا لمريديه. إنها تُبرز تأثير القدوة الحسنة، وتصحيح المسار، وتوجيه العطاء نحو الفضيلة الأسمى.

كان الشيخ البوزيدي لا يملك من اللباس سوى جبة واحدة. وحدث يوماً أن زاره ذات بعض مريديه، فخرج إليهم مرتديًا ثوب زوجته. فوقع في نفوسهم شيء من الدهشة والتعجّب، وسألوه عن الأمر، فأجابهم بهدوء: "غسلت جبتي، وليس لي غيرها، فلم أجد ما أرتديه إلا ما ترون".

عندها استشعر الفقراء من مريديه تقصيرهم تجاه شيخهم، وتألموا في أنفسهم كيف غفلوا عن حال أبيهم الروحي، وهم يلبسون أفخر الثياب، وكونهم من كبار التجار والأثرياء. فتحركت فيهم روح الوفاء والتكافل، فتسارعوا جميعًا إلى بيوتهم، ثم رجعوا إلى الشيخ وكلٌّ منهم يحمل أفخر ما لديه من اللباس. غير أن الشيخ، بطبعه الزاهد، لم يأخذ سوى ثوب واحد فقط، ولم يردَّهم خائبين، وأمرهم أن يتصدقوا بما تبقّى على أهلهم وجيرانهم المحرومين من حولهم.

عندما قام مريدو الشيخ البوزيدي بزيارته وخرج إليهم مرتديًا ثوب زوجته، كان هذا المشهد صادمًا ومدهشًا لهم، خاصة وأنهم اعتادوا على أن يرى الشيوخ في أبهى حلة. رده الهادئ والواضح يُجسد قمة القناعة والرضا بما قسم الله، ويُبرز أنه لا يرى في فقره المادي نقصًا أو عيبًا. هذا الموقف لم يكن مقصودًا للإظهار، بل كان انعكاسًا لحاله الحقيقي، ما جعله قدوة عملية لمريديه في الزهد والتواضع.

كان تأثير هذا المشهد على المريدين كبيرًا. هذا الشعور بالتقصير والألم النفسي يُظهر عمق العلاقة الروحية بين الشيخ ومريديه، فهم لم يكونوا مجرد أتباع، بل كان بالنسبة إليهم أبيهم الروحي. هذا الوعي أدى إلى تحرك فوري وروح تكافل. هذه الاستجابة السريعة والعفوية تُبرز قوة تأثير القدوة الحسنة، وكيف أن الموقف العملي الواحد يمكن أن يُحدث تغييرًا جذريًا في القلوب والسلوكيات.

على الرغم من كرم مريديه, فإن الشيخ البوزيدي, بطبعه الزاهد, لم يقبل منهم سوى "ثوب واحد". هذا الموقف يُعد درسًا آخر في عدم التعلق بالدنيا, الشيخ لم يكن يبحث عن الثياب الفاخرة أو الكثرة, بل اكتفى بما يسد الحاجة, وأظهر أن زهده ليس ادعاءً بل حقيقة يعيشها. الأهم من ذلك, أنه أمرهم أن يتصدقوا بما تبقّى على أهلهم وجيرانهم المحرومين. هذا التوجيه يُحوِّل العطاء من مجرد إكرام لشخص الشيخ إلى قربة عظيمة لله تعالى وفائدة للمجتمع بأسره. الشيخ لم يُرد أن يركز العطاء عليه وحده, بل أراد أن يُوجِّه هذه الروح الكريمة نحو من هم أحوج, مؤكدًا على أهمية التكافل الاجتماعي والإحسان إلى الفقراء.

تُعلمنا هذه القصة أن الشيخ الحقيقي هو من يُربي بالقدوة لا بالكلام فقط, وأن زهده لا يعني الحرمان بل يعني عدم التعلق, وأن حكمة الأولياء تكمن في توجيه الخير حيث يكون الأثر أعظم والفائدة أعم. إنها شهادة على أن البركة الحقيقية تكمن في البليل وليس في الكثرة, وفي العطاء, لوجه الله, للفقراء والمساكين.

كرامة الإصلاح ودفع الحسد بالخير

تُقدم هذه الحادثة مثالًا بارزًا على حكمة الشيخ البوزيدي وكيف يُحوِّل المواقف السلبية, الناتجة عن الحسد, إلى فرصة لتحقيق الخير وإصلاح ذات البين. إنها تُبرز كراماته الجمالية والإكرامية في أبهى صوَّرها: دفع الضرر بالرحمة, وإصلاح الشقاق باللطف, وتجلّي بصيرته الربانية.

دُعي الشيخ البوزيدي إلى حفل زفاف, فلبّى الدعوة وحضر المأدبة. وكان من بين المدعوين شيخ من شيوخ الزوايا "التبرُّكيَّة" الذي حمل في قلبه حسدًا شديدًا للشيخ البوزيدي, وكان يُكنّ له البغض والكراهية. وعندما بلغ هذا الشيخ باب بيت العرس, أخبروه أن الشيخ البوزيدي قد حضر وهو جالس مع المدعوين, فغضب وأقسم بالله ألا يدخل البيت ما دام الشيخ البوزيدي فيه.

احتار صاحب العرس, واستشار زوجته, فأجابته بحكمة: "سأُعدّ طعامًا خاصًا للشيخ البوزيدي, ليتناوله بهدوء مع أهله في بيته, ثم نصرفه بهذه الطريقة". فأعدّت طبق من الكُسكسِي وقُدّم للشيخ البوزيدي, فتلقّاه بقبول حسن, ودعا للعريسين بالمودة وحسن المعاشرة, ولصاحب العرس بالخير والبركة, ثم انصرف بلطف.

لكن الشيخ البوزيدي لم يتوجه إلى بيته كما ظنّ الناس, بل أطلعه الله تعالى على خصومة خفيّة بين والد العريس وأخته, التي لم تُدعَ إلى الحفل, رغم أنها عمّة العريس, بسبب خصام قديم. فذهب الشيخ إلى بيت تلك المرأة, فخرج إليه زوجها, وقدّم له الشيخ الطبق وقال له: "صهرك, يعتذر لكما عن هذا النسيان, ويدعوكما الآن لحضور العرس". فلما سمعت الزوجة صوت الشيخ من داخل البيت, غمرها السرور, وأطلقت الزغاريد, ثم أسرعت للمشاركة في فرح ابن أخيها. وفي مجلس العرس, تعجّب الناس من حضورها المفاجئ, وسألوا عمن دعاها. ولم يعرفوا الجواب إلا حين عاد الطبق الذي قدّموه للشيخ مملوءًا بالحلوى, فعلموا أن الشيخ البوزيدي هو صاحب هذا الصنيع الحسن, ومصلح ذات البين.

الحادثة تشهد حسد وبغض أحد شيوخ الزوايا "التبرُّكيَّة" تجاه الشيخ البوزيدي. هذا الحسد يصل إلى حد التطرف, حيث يقسم الشيخ الحاسد ألا يدخل حفل الزفاف مادام الشيخ البوزيدي فيه. هذا الموقف يُظهر مدى تعمق الحسد في القلوب, وكيف أنه قد يُفقد صاحبه الاتزان.

احتار صاحب العرس, الذي وجد نفسه بين نارين: ضيف عزيز, وشيخ يُكنّ العداوة له. هنا يأتي دور حكمة زوجة التي اقترحت حلًا ظاهره إكرام للشيخ البوزيدي, لكن باطنه إبعاد له. هذا الحل, وإن كان يحمل نية حسنة من الزوجة لتجنب الصدام, إلا أنه يُبيّن الضغط الذي وُضع فيه صاحب العرس.

الشيخ البوزيدي, الذي استقبل الطبق "بقبول حسن, ودعا للعريسين... ثم انصرف بلطف", لم يظهر أي استياء, مما يؤكد على تساميه عن صغائر الأمور وعلمه بما سيحدث.

النقطة المحورية في القصة هي أن الشيخ البوزيدي لم يتوجه إلى بيته كما ظن البعض, بل كوشف بقطيعة بين عائلة أهل العرس. هذا الكشف يدل على فراسة الشيخ العميقة وبصيرته الربانية التي تُمكِّنه من معرفة الخفايا والأسرار التي لا يعلمها أحد.

هنا يُحوِّل الشيخ الموقف الذي كان يمكن أن يُنهي دوره في الحفل إلى فرصة عظيمة للإصلاح. فبدلاً من أن يكون ضيفًا يُصرَف, يصبح مصلحًا لذات البين. ذهابه إلى بيت عمة العريس, وتقديمه للطبق مع الاعتذار باسم أخيها, كان عملًا حكيمًا ولطيفًا جدًا, يُظهر التصرف الدبلوماسي الحكيم للشيخ الذي لم يوبخ

أحدًا, بل استخدم اللين والاعتذار لتهدئة النفوس. كانت له بصيرة في التعامل مع النفوس, حيث أدرك أن المرأة كانت في حاجة إلى هذه اللفتة الكريمة والدعوة الرسمية لطي صفحة الخلاف, فالشيخ لم يكتفِ بإزالة الحسد بينه وبين الشيخ الآخر, بل امتدت رحمته لإصلاح الخلافات الأسرية. فكانت النتيجة فرحة العمة بالدعوة وحضورها المباغت للحفل, وزغاريدها تُؤكد نجاح مسعى الشيخ. في البداية, تعجب الناس من حضورها, مما يُظهر مدى عمق الخصومة السابقة وعدم توقعهم لتصالحها مع أخيها. فجاء الاعتراف بفضل الشيخ لمَّا عاد الطبق مملوءًا بالحلوى, فعلموا أن الشيخ البوزيدي هو صاحب الفضل

هذا الإشارة الرمزية (الطبق الفارغ الذي عاد مملوءًا بالحلوى) تُؤكد على أن البركة والخير يتبعان الشيخ أينما حلَّ, وأن فعله لم يكن مجرد إكرام لطعام, بل كان إكرامًا للنفوس وإصلاحًا بين الناس.

تُعلمنا هذه القصة أن الحسد يمكن أن يكون فرصة لظهور الخير والبركة, وأن الولي الحقيقي لا ينشغل بخصومات الآخرين, بل يركز على إصلاح القلوب وتوحيد الصفوف. إنها تُجسد قول النبي ﷺ: "ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم" وبمعنى أعمق, الإصلاح بين الناس هو من أعظم القربات التي يقوم بها المؤمن.

مقابلة الحسد بالتواضع والحكمة

تُقدم هذه الحادثة مثالًا بليغًا على الحكمة العميقة والتواضع الجمّْ الذي تحلَّى به الشيخ البوزيدي, وكيف استطاع أن يُحوّل موقفًا مليئًا بالحسد والتهكُّم إلى درس روحي عظيم يكشف عن مقام العارف بالله. تبرز القصة ثلاثة جوانب رئيسية: الحسد الخبيث, رد الفعل الحكيم, والرسالة الروحية العميقة.

وفي نفس موضوع الحسد من قِبَل مشايخ الزوايا التبرُّكيَّة حيث قَدِم إلى الشيخ البوزيدي أحدهم وكان قلبه ممتلئًا بالحسد والكبر تجاه من يراه دونه منزلة, وقال له وحاله يخبر بخبث سريرته, وبنبرة ملأها التهكم, وبسمة خبيثة: "رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام, وقال لي إنك من أصحاب النار". فلم يغضب الشيخ البوزيدي, ولم يُقابله بالإنكار أو الحدَّة, بل استقبل كلامه بوجه طَلْقٍ وابتسامة هادئة, وقال له بكل رحابة صدر: "سيدي, أحقًّا رأيتَ رسول الله ﷺ, وقال عني إنني من أصحاب النار؟ جزاك الله خيرًا! فقد كنت أظن أن مثلي لا يُذكر عند رسول الله ﷺ, ولا يُؤبه له. أما وقد ورد اسمي في حضرته الشريفة, فالحمد لله

الذي جعلني في دائرة اهتمامه, فهو الشفيع المشفَّع في العصاة والمذنبين أمثالي. جزاك الله عني خيرًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

مرض الحسد والكبر الذي ملأ قلب ذاك الرجل تجاه الشيخ البوزيدي, ثم يأتيه مدّعيًا رؤيا رسول الله ﷺ في المنام, ويقول له أن "الشيخ البوزيدي من أصحاب النار". هذه الرؤيا المزعومة لم تكن سوى وسيلة خبيثة للطعن والإهانة, فنبرة التهكم والبسمة الخبيثة تدلان على سوء نيته ورغبته في الإساءة والتحقير. إنها محاولة مكشوفة لتقويض مكانة الشيخ البوزيدي وكرامته الروحية.

الرد الحكيم للشيخ البوزيدي كان غير متوقعا, فقد تجلى بوجه طَلْق وابتسامة هادئة فاجأ بها ذاك الشخص. فبدلاً من الغضب, أو الإنكار, أو المقابلة بالمثل, استقبل الشيخ كلامه بوجه طَلْقٍ وابتسامة هادئة, وأقَّر رؤيا الرجل وأبدى فرحا أن يلفظ رسول الله ﷺ اسمه.

هذا الرد يكشف عن التواضع المطلق للشيخ البوزيدي الذي لم يعتدّ بنفسه أو بمقامه, بل تقبل الكلام الذي ظاهره مذمة بمنتهى التواضع. أدرك الشيخ مقصد الرجل, لكنه اختار ألا ينزل إلى مستوى خصومته, بل تعامل مع الأمر من منطلق روحي أعمق, والعارف بالله الحقيقي لا يرى لنفسه مقامًا يستحق المدح أو الذكر عند رسول الله ﷺ. ثم إن شكر ذاك الرجل المسيء يُعد قمّة في الأدب وحسن الخلق, ويُظهر أن قلبه خالٍ من الضغينة.

ثم ينتقل الشيخ البوزيدي إلى جوهر رده, الذي يُعري خبث الرجل ويزيد من سمو مقام الشيخ. تلك العبارات تحمل في طياتها معانٍ بالغة والتي حوَّلت الذم إلى مدح, بما الشيخ حوّل ذكر اسمه, حتى لو كان في سياق الذم, إلى شرف عظيم ومكرمة إلهية. فمجرد أن يُذكر اسمه في حضرة النبي ﷺ يُعدّ فوزًا. ولم يتوانى في الاعتراف بالتقصير تواضعًا منه, رضي الله عنه, وهو منتهى التواضع, وهو حال العارفين الذين لا يرون لأنفسهم فضلًا. رأى الشيخ البوزيدي في ذكر اسمه, حتى ولو كان مذمومًا, فرصة لشفاعة النبي ﷺ, فالفوز بالاهتمام النبوي هي قمة الفوز, فإذا اهتم بك رسول الله ﷺ, فما عساك تطلب أكثر من ذلك؟

تُظهر هذه القصة كيف أن العارف بالله لا يُضره كيد الكائدين ولا حسد الحاسدين, بل يُحوّل كل موقف إلى فرصة للترقي الروحي, وإظهار التواضع, وتأكيد اليقين بربه ونبيّه. إنها شهادة على أن أعظم قوة تكمن في صفاء القلب, والتسليم المطلق, والتعامل مع الخلق بالرحمة والحكمة, حتى مع المسيئين.

الخُلُق الحسن أعظم دعوة للإسلام

تُقدم هذه الحادثة مشهدًا بديعًا يعكس الرحمة الشاملة والأخلاق النبيلة للشيخ البوزيدي, وتُظهر كيف أن العارف بالله يتعامل مع الإنسان باعتباره مخلوقًا مُكرمًا بغض النظر عن دينه أو خلفيته, وتبرز عدة جوانب مهمة: المروءة الإنسانية, التأثير الإيجابي, والرحمة الغير مقيدة.

في أحد الأيام, كان الشيخ البوزيدي يسير في أحد شوارع المدينة, وهو شارع كانت أغلب محلاته مملوكة لتجار من اليهود. وبينما هو في طريقه, سقط أمامه شيخ يهودي على الأرض, فبادر محمَّد البوزيدي على الفور لمساعدته. أمسك بيده, ورفعه بلطف, ونفض الغبار عن ثيابه, ثم التقط قبعته ووضعها على رأسه قائلاً له بكل حنان: "لا بأس عليك, لا بأس عليك".

وقف التجار اليهود في المحلات القريبة مذهولين من هذا الموقف النبيل, إذ لم يتوقعوا هذا الخلق الرفيع من رجل عُرف بحمله للواء الشريعة المحمَّدية, وسائر على طريقها. ومنذ ذلك اليوم, صار أولئك التجار كلما مرّ بهم الشيخ البوزيدي, يستقبلونه بأسمى آيات التحية, ويقابلونه بالتقدير والاحترام.

رغم أن الشيخ البوزيدي كان عالمًا مسلمًا, لم يتردّد في أن يُعين شيخًا يهوديًا سقط أرضًا, بل فعل ذلك بكمال المروءة واللطف, مما يدل على أن الإنسان في نظر العارف بالله هو مخلوق مكرَّم قبل أي اعتبار آخر. فالرحمة لا تُقيّد بالدين, بل تنبع من صفاء القلب.

في أحد شوارع المدينة التي يسيطر عليها تجار يهود, يسقط شيخ يهودي أرضًا. هذا الموقف كان يمكن أن يُقابل باللامبالاة من الكثيرين, خاصة في زمن قد تُشدد فيه الفروقات الدينية. لكن الشيخ البوزيدي, على الفور, بادر لمساعدته. هذا الفعل يُشير إلى الاستجابة الفورية والأصيلة, لم يتردد الشيخ, مما يدل على أن المروءة والرحمة متأصلتان في طبيعته. اللطف والتفاني, طريقة المساعدة (الرفع بلطف, نفض الغبار, إعادة

القبعة بحنان) تُظهر اهتمامًا وتكريمًا لا مجرد أداء واجب. تجاوز الحواجز الظاهرية, لم ينظر الشيخ إلى كون الرجل يهوديًا, بل نظر إليه كإنسان يحتاج إلى المساعدة.

كان رد فعل التجار اليهود "مذهولين من هذا الموقف النبيل". هذا الذهول يُفسر بأنهم لم يتوقعوا هذا الخُلق الرفيع من رجل دين. غالبًا ما تكون هناك تصورات نمطية أو أحكام مسبقة عن رجال الدين من مختلف الملل, ولكن الشيخ البوزيدي حطم هذه التصورات بفعله, والنتيجة كانت تغيرًا جذريًا في سلوكهم تجاهه. هذا يُظهر قوة القدوة الحسنة, ففعل واحد من اللطف والمروءة كان له تأثير أبلغ من أي خطاب أو وعظ. الأخلاق النبيلة تُشكل لغة عالمية تفهمها جميع النفوس, وتكسر حواجز الدين والعقيدة.

خلاصة القول هذه الحادثة تؤكد على تكريم الإنسان في الإسلام, وهو مبدأ قرآني أساسي, حيث كرَّم الله بني آدم بغض النظر عن معتقداتهم. فصفاء قلب العارف بالله, يُدرك به الحقائق الكونية, ويرى الخلق كلهم عيال الله, فيُعاملهم بالرحمة التي امتلأ بها قلبه من ربه والتي هي صفة إلهية, فالشيخ البوزيدي جسَّد الرحمة الإلهية الشاملة التي لا تفرق بين البشر على أساس الدين أو العرق.

إن هذه القصة تُعد درسًا خالدًا في التعايش, والتسامح, والأخلاق الإنسانية الرفيعة التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم, وخاصة من يحملون لواء العلم والدين. إنها شهادة على أن أعظم الدعوة هي تلك التي تُقدم بالعمل والخلق الحسن.

من زينة الدنيا إلى حضرة المحبة الإلهية

تُقدم هذه الحادثة مشهدًا تعليميًا عميقًا من حياة الشيخ البوزيدي, حيث يُظهر كيف يُربي مريديه على كسر الكبر والعجب بالجاه والمنصب, ويوجههم نحو التواضع الحقيقي والافتقار إلى الله. هذه القصة تُبرز حكمة الشيخ البوزيدي التربوية, وبصيرة مريده, وعظمة الجزاء الإلهي.

من بين مريدي الشيخ البوزيدي, مصطفى بن كريتلي, وعَمُّهُ هو الشيخ الحرَّاق بن كريتلي شيخ الزاوية السنوسية, وكان عضوا في المجلس البلدي لمستغانم إبان الاستعمار الفرنسي, رجل صاحب مكانة وجاه, ووجه من وجوه السياسة في زمنه. ذات يوم, كان مصطفى يتهيأ لاستقبال "الوالي العام الفرنسي", الذي

جاء لزيارة رسمية إلى مدينة مستغانم, فارتدى زيه الرسمي, وتهيّأ بكامل هندامه وهيبته. ولكن في تلك اللحظة, جائه شيخه, الشيخ البوزيدي, وقال له بكل ثقة وهدوء: "احمل عني هاتين الحاويتين", وكانتا تحتويان على أمعاء خروف كاملة, بكليتيه ورئته وقلبه, والدم يقطر منها, والذباب يتطاير حولها. فحملها مصطفى دون تردد, وسار بها خلف شيخه, رغم مقامه الرفيع وجلال هيبته أمام الناس. فأخذه الشيخ البوزيدي وهو يتجول به هكذا في شوارع مستغانم الكبرى التي تمتلئ بالسكان الأوربيين, ويمرّ به بينهم, حتى وصل إلى ما يُعرف بـ "المَطْمَر" أو "باب المَجَاهِر", وهو الحاجز الفاصل بين الحي الأوروبي الراقي والحي الشعبي العربي حيث يقطن المسلمون. عند ذلك, توقف الشيخ البوزيدي وقال له: "يكفيك يا ولدي, جزاك الله خيرًا. أبشِر, فقد شفاك الله تعالى من الكِبر, ومن العُجب بالنفس, ومن الغرور بالمنصب والجاه. نِعْمَ العبد أنت, فقد جمع الله لبعض أنبيائه بين النبوة والملك, كما جمع لبعض أوليائه بين الولاية والسلطان, فما زادهم ذلك إلا افتقارًا لله, وانكسارًا بين يديه, مستمطرين رحمته, متذللين لعظمته, حتى يلقوه وهم أفقر الخلق إليه. وهذه نعمة عظيمة, لا يُؤهَّل لها إلا من أدخله الله حضرة وُدّه ومحبّته, حضرة لا يدخلها متكبر. وقد أرضيتَ مولاك, ففُزت بسعادة الدارين. حفظك الله, ورعاك بعين عنايته, فيما بقي من عمرك".

مصطفى بن كريتلي, مريد الشيخ البوزيدي, وهو شخصية مرموقة سياسيا واجتماعيا, كان يتهيأ يوما لاستقبال رسمي في قمة مظاهر العزة الدنيوية والمكانة الاجتماعية. في هذه اللحظة بالذات, يأتي الشيخ البوزيدي بطلب غير متوقع وغير عادي على الإطلاق بالنسبة لمصطفى وخاصة في هذه المناسبة. هذا الطلب يُشكل اختبارًا حقيقيًا له, هل سيتغلب على كبره, وجاهه, ومكانته أمام الناس, ويطيع شيخه؟

قرار مصطفى بحمل الحاويتين دون تردد والسير خلف شيخه في شوارع مستغانم المزدحمة بالأوروبيين, وصولًا إلى الحيّ الشعبي للمسلمين, هو دليل قاطع على صدقه, وإخلاص طاعته, ونجاحه في كسر كبرياء نفسه. هذا الفعل, الذي يبدو مهينًا في الظاهر, كان في باطنه رفعة ومكانة.

عند وصولهما إلى نقطة الفصل, يتوقف الشيخ البوزيدي ويُعلن عن الغاية السامية من هذا الاختبار, ويُبشر مصطفى بالجزاء, وهذا هو جوهر الدرس التربوي الذي تلقاه مصطفى:

علاج الأمراض القلبية: الكبر والعجب والغرور من أعظم الحجب بين العبد وربه. الشيخ عالج هذه الأمراض الروحية في مصطفى بطريقة عملية ومباشرة.

قيمة التواضع: يُثني الشيخ على مصطفى, وهذا الثناء ليس على جاهه الدنيوي, بل على تواضعه وطاعته.

الجمع بين الدنيا والآخرة: يُشير أن المنصب والجاه ليسا نقيضين للتواضع إذا كانت القلوب متعلقة بالله.

نعمة حضرة الود والمحبة: يختتم الشيخ ببشرى عظيمة لمصطفى وهذا يؤكد أن التواضع هو مفتاح الدخول إلى المقامات العالية والقرب من الله, وأن "حضرة المحبة" الإلهية لا تتسع للمتكبرين.

سعادة الدارين: نتيجة لهذا التواضع والطاعة, نال مصطفى "سعادة الدارين", وهي الفوز بخير الدنيا والآخرة.

تُعتبر هذه القصة مثالاً بليغًا على التربية الصوفية العملية, التي لا تكتفي بالوعظ النظري, بل تُخضع المريدين لتجارب عملية تُكسر بها كبرياء نفوسهم, وتُزكى بها قلوبهم, ليرتقوا في درجات العبودية والتواضع, وينالوا القرب من ربهم. إنها قصة تُظهر أن العارف الحقيقي هو من يُعلم تلاميذه أن القيمة الحقيقية ليست في زينة الدنيا, بل في الافتقار إلى الله ونيل محبته.

من شهوة الطعام إلى نور المعرفة

تُقدم هذه الحادثة لمحة عميقة عن منهج الشيخ البوزيدي التربوي في تهذيب نفوس مريديه. إنها تُظهر كيف يُحوّل الشيخ موقفًا بسيطًا (تناول الطعام) إلى درس روحي عظيم يهدف إلى الارتقاء بالمريد من الاهتمامات المادية إلى آفاق المعرفة الإلهية.

في يوم ما, جاء أحد المريدين من البادية لزيارة الشيخ البوزيدي, وقد امتلأ قلبه شوقًا لرؤية شيخه, لكن نفسه كانت أيضًا تتطلع لما ستجده من طعام طيّب في ضيافته. ولما كوشف الشيخ بما في نفس المريد, أراد أن ينهض به من هذا المستوى الحسي إلى أفق أعلى من الروح والهمة, فقدم له صحنًا فيه فول بسيط, ثم قال له بلطف: "تقدّم يا ولدي, وكل", ثم أشار إلى بطنه, وقال له مذكِّرًا: "ما هذه إلا أمعاء ذات رائحة كريهة, فاملأها بما وُجد, ولا تُشغل بها همّك, وانهض في طلب الله تعالى, بذكره ليلًا ونهارًا. فلعلّ رحمة الله

تشملُك, فتُجردك من سباتك وغفلتك, وتوقظك إلى يقظة المعرفة, ومشاهدة أنوار ربّك بعين بصيرتك. فإذا انجلى ليل نفسك, طلع نهارك, وأشرقت شمس هدايتك, فلا تأفل أبدًا, ولا تميل ولا تزول, حتى تلقى الله وهو عنك راضٍ".

تبدأ القصة بمريد يُعبر عن شوقه لشيخه, لكنه في الوقت ذاته يتطلع إلى "طعام طيّب في ضيافته". هذه الرغبة طبيعية, لكن الشيخ البوزيدي, الذي "كوشف بما في نفس المريد", أدرك أن هذه الرغبة المادية قد تكون عائقًا أمام الارتقاء الروحي. هنا تبرز كشوفات الشيخ وبصيرته التي تمكنه من رؤية ما يدور في خلد مريديه, فبدلاً من توبيخ المريد, قدَّم له صحنًا فيه فول بسيط, في إشارة رمزية إلى بساطة الدنيا وعدم التعلق بزينتها, ثم وجَّه له نصيحة بليغة تُعيد توجيه انتباهه.

كلمات الشيخ حملت في طياتها عدة دروس منها, الزهد في الدنيا بالتذكير بأهمية عدم التعلق الزائد بالطعام وشهوات الجسد, وأن الجسد مجرد وعاء زائل. القناعة والرضا بالدعوة إلى الاكتفاء بالموجود وعدم التكلف في طلب المزيد. توجيه الهمة بتحويل اهتمام القلب من الجسد ومتطلباته إلى طلب الله وذكره. هذا هو جوهر التربية الصوفية, حيث تُعلَّق القلوب بالخالق لا بالمخلوق.

ثم انتقل الشيخ إلى وصف الغاية النبيلة للتربية الروحية, وهي الوصول إلى المعرفة الإلهية واليقظة القلبية. فقوله في ذلك يُبين الهدف الأسمى من الذكر وتركيز الهمَّة. فقوله إن رحمة الله مفتاح اليقظة مُشيرا إلى أن التغيير الحقيقي يأتي بفضل الله ورحمته, وليس بمجرد الجهد البشري, وقوله في التخلص من الغفلة, لأنَّ الغفلة هي الحجاب الأكبر بين العبد وربه, وقوله في مسألة البصيرة هو أنَّ المعرفة الحقيقية ليست معرفة عقلية مجردة, بل هي مشاهدة بعين البصيرة, أي إدراك حقيقة الوجود ببصيرة القلب والاتصال الروحي العميق.

يختتم الشيخ كلامه بوصف جميل لثمرة هذه اليقظة والمعرفة: "بانجلاء ليل النفس وطلوع نهار القلب, وإشراق شمس الهداية, فلا أفل أبدًا, ولا ميول ولا زوال, حتى لقاء الله وهو راضٍ".

هذا الختام يُقدم صورة مُشرقة للمآل الروحي وهي انكشاف الحجب بانجلاء ليل النفس وهو زوال ظلمات الجهل والغفلة. نور الهداية الدائم بشمس الهداية, فلا أفل أبدًا, ولا ميول ولا زوال, مُشيرا إلى أن هذه الهداية والمعرفة إذا تحققت, فهي ثابتة ودائمة لا تتغير. الرضا الإلهي هو الهدف الأسمى للمريد عند لقاء الله وهو راضٍ عنه, وهو ما تُفضي إليه هذه المسيرة الروحية.

هذه القصة تُعد مثالاً رائعاً لأسلوب الشيخ البوزيدي في التربية الروحية العميقة التي تتجاوز حدود الظاهر وتُخاطب أعماق النفس, موجهةً إياها نحو الغاية الأسمى من الوجود: معرفة الله وطلب مرضاته.

فاجعة الفقد

تُقدم هذه الحادثة مشهدًا مؤلمًا ومُفجعًا في حياة الشيخ البوزيدي: فقدان ابنه (محمَّد) قتلاً خطأً. ومع ذلك, تُبرز القصة عظمة روحه وسمُو أخلاقه وتسليمه المطلق لقضاء الله وقدره, مما يُعد درسًا عميقًا في الصبر والإيمان.

حدثت للشيخ البوزيدي واقعة مؤلمة عندما فقد ابنه الذي قُتل خطأً في احتفال بالمولد النبوي الشريف, إثر حادثة إطلاق نار خلال إحدى حلقات طلق البارود. وعندما وصل الشيخ إلى موقع مصرع ابنه, وجده ملقى على الأرض ودمه ينزف. فقال له أحد الحاضرين: "تعال لأريك قاتل ابنك", فرد عليه الشيخ البوزيدي بهدوء وثبات: "اذهب يا "كْلوفي" فإن قاتل ابني أعرفه جيدًا, وهو الذي حكم على كل نفس بالموت". (وكلمة " كْلوفي" تُطلق على الذي يتكلف نفسه في أمور لا تعنيه).

فحمل الشيخ ابنه الميت, وأُقيمت له جنازة بسيطة, ولم يرفع أي شكوى ضد القاتل, ولم يطلب الدية, بل دفنه محتسبًا, مستندًا إلى قوله تعالى: "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ, الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ, أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" [سورة البقرة :155- 157].

الحدث بحد ذاته مفجع: وفاة الابن الذي قُتل خطأً أثناء احتفال طلق البارود. هذا يُظهر كيف يمكن أن تتحول لحظة الفرح والاحتفال إلى مأساة غير متوقعة. وصول الشيخ إلى موقع مصرع ابنه ورؤيته له ملقى بدمه يُضيف بعدًا إنسانيًا مؤلمًا للقصة, فهو أب يواجه صدمة فقدان فلذة كبده.

النقطة الأكثر إشراقًا وتأثيرًا في القصة هي رد فعل الشيخ البوزيدي على الرغم من حجم المصاب. عندما حاول أحد الحاضرين أن يدلَّه على "القاتل", كان رد الشيخ هادئًا وثابتًا, يكشف عن فهم عميق للقدر الإلهي وتُعد قمة في التسليم لقضاء الله, وتُظهر أن الشيخ لم يرَ في الحادثة مجرد فعل بشري, بل قضاءً إلهيًا محتومًا, ويُشير أيضا إلى اليقين التام بالقدر, فالشيخ يدرك أن الموت أجل محتوم بتقدير الله, وأن الأسباب الظاهرة (كطلقة البارود) هي مجرد وسائل. لم يُرِد أن يُورط نفسه في دائرة الثأر أو المطالبة بالقصاص أو الدية, مفضلاً ترك الأمر لتدبير الله.

في نظر العارف بالله, القاتل الحقيقي ليس الإنسان الذي أطلق الرصاص, بل هو الله الذي قدَّر الموت على كل نفس. واستخدامه لكلمة "كْلوفي" (الذي يتكلف نفسه في أمور لا تعنيه) يُبرز حكمة الشيخ في عدم الانجرار إلى أمور تزيد المصاب وتُشغل القلب عن التوجه إلى الله.

عدم رفع الشيخ أي شكوى, وعدم طلبه للدية, ودفنه لابنه "محتسبًا", كل ذلك يؤكد على درجة عالية من الإيمان والرضا. استشهاده بالآية الكريمة يُلخص جوهر فلسفته في الحياة والموت, وهي أن المصيبة جزء من الابتلاء, فالله يبتلي عباده ليختبر صبرهم. الرجوع إلى الله, الإيمان بأن كل شيء من الله وإليه يعود, يخفف من وطأة الفقد. الصبر والترحُّم على الميت, فيكون جزاء الصابرين هو صلوات من الله ورحمته, وهؤلاء هم المهتدون.

تُعتبر هذه القصة من أقوى ما يُمكن أن يُسلط الضوء على الجانب الروحي والقدوة الحسنة للشيخ البوزيدي في أشد المواقف صعوبة. إنها تُعلمنا أن الصبر عند الصدمة الأولى, والتسليم المطلق لمشيئة الله, هو سبيل المؤمنين الصادقين, وهو ما يُضفي على حياة العارف بالله هالة من الإجلال والإكبار.

الغوث وطيّ الأرض (الشفاء الغيبي)

هذه الحادثة تُقدم مثالًا مدهشًا على كرامات الشيخ البوزيدي التي تتجاوز حدود الزمان والمكان, وتُظهر قدرته على التصرف في عالم الغيب بفضل الله تعالى. إنها قصة تجمع بين الشفاء المعجز, الحضور الغيبي, وتأكيد التواضع الرباني للشيخ.

كان مريد الشيخ البوزيدي مصطفى ابن كريتلي, في رحلة إلى فرنسا برفقة رفيقه المقدم أحمد ابن إسماعيل. فأصيب مصطفى بمرض شديد, وكان أحمد يزوره بصحبة الأطباء عدة مرات لمتابعة تطور مرضه. وفي آخر زيارة, دخل أحمد مع الطبيب إلى غرفة مصطفى ليقدّم له العلاج, لكنهما تفاجآ بمشهد غير متوقع: مصطفى واقف على قدميه وبصحة جيدة تمامًا, فاستغرب الطبيب وسأل: "أين المريض الذي كان في حالة حرجة جدًا كما وصفت لي؟", فأجابه أحمد بدهشة: "والله لا أعلم ماذا أقول, قبل لحظات كان يحتضر وحرارته عالية وكان يئن, والآن أراه معافى". حينها تدخل مصطفى قائلاً: "ادفع أجرة الطبيب واصرفه, وسأخبرك بما جرى".

بعد خروج الطبيب, بدأ مصطفى يروي ما حدث له وهو في غاية الاطمئنان والسرور, ممتدحا الشيخ البوزيدي بشدة: "هل تعلم من زارني قبل أن تأتيا بوقت قليل؟ وهل تتصور على أي مطية طوى بها المسافة بيننا وبين مستغانم؟ إنه شيخي, الذي أخذ بيدي, وملاذي في اليسر والعسر, ذلك الرجل الخامل المتواضع, الذي تحققت فيه العبودية لله, وقد تحققت فيه نسبتنا إليه, دخل عليّ والباب مغلق, ومسح على رأسي وجسدي, وقال لي: "شفاك الله, ولا بأس عليك", ثم انقطعت صورته من أمامي عندما قال: "لا بأس عليك". فنهضت معافى كما ترى".

عند عودتهما إلى مستغانم, أخبر مصطفى الفقراء عن هذه الكرامة, فتعجبوا وقالوا: "الشيخ لم يغادر مستغانم, بل كان حاضرًا معنا في الصلوات الخمس". حينها سأله فقير وهو حمَّادي ابن قارة, وهو من كبار التجار في القماش: "هل تتذكر في أي يوم وأي ساعة وقع ذلك؟" فذكر له مصطفى اليوم والساعة, فقال حمَّادي: "في تلك الساعة بالذات دخل علينا الشيخ البوزيدي في المحّل, وكان وجهه شاحباً وجبينه يتصبب عرقًا, وكان في حالة اضطراب, وقال لي: "ناولني كأس ماء بسرعة, فإن ولدي مريض". كرَّرها ثلاث مرات, ثم شرب الماء وقال: "الحمد لله, لا بأس عليه".

مرض شديد يصيب مصطفى ابن كريتلي في فرنسا, مما أثار قلق رفيقه أحمد ابن إسماعيل. حالة مصطفى الحرجة كانت مؤكدة ومتابعة طبياً, لكن المشهد ينقلب تماماً عند الزيارة الأخيرة, حيث يجدون مصطفى

واقفًا على قدميه وليس به سوء. هذا التحول المفاجئ وغير المبرر علميًا هو جوهر الكرامة والمعجزة, فدهشة الطبيب وحيرة أحمد تعكسان حجم الخارق الذي حدث.

يكشف مصطفى سر شفائه بامتنان وفرح, مُسندًا الفضل كله لشيخه البوزيدي, ممتدحا إياه بكلمات تُشير إلى عمق العلاقة الروحية والثقة المطلقة التي بينهما. الأهم هنا هو حضور الشيخ البوزيدي الغيبي, الذي دخل عليه "والباب مغلق" و"مسح على رأسه وجسده, وقال له: 'شفاك الله, ولا بأس عليك'". لم يكن شفاء مصطفى شفاءً طبيًا, بل كان شفاءً روحياً مباشراً ببركة دعاء الشيخ ولمسه.

هذه اللحظة تُبرز قدرة الولي على الحضور في أماكن متعددة في نفس الوقت. هذه من الكرامات المعروفة للأولياء الصالحين, حيث يُطيِّب الله لهم الحضور الروحي أو الجسدي في أماكن بعيدة ومتعددة.

وصف الشيخ بـالخامل المتواضع تُشير إلى أن هذه القوة الإلهية تجلت في شخص لا يُظهر العظمة المادية, بل يُعرف بعبوديته وتواضعه.

تُكتمل دائرة اليقين عندما يعود مصطفى إلى مستغانم, ويُخبر الفقراء, الذين يُؤكدون أن الشيخ "لم يغادر مستغانم, بل كان حاضرًا معنا في الصلوات الخمس". هذا التأكيد يُرسخ فكرة تعدد الوجود أو التجلّي الروحي للشيخ.

النقطة الأعمق والأكثر إثارة هي شهادة حمَّادي ابن قارة, فبتطابق اليوم والساعة التي حدث فيها الشفاء في فرنسا, مع دخول الشيخ على حمَّادي في محله بوجه شاحب, وعرق يتصبب من جبينه, وطلبه الماء قائلاً: "إن ولدي مريض", ثم شرب الماء وحمد الله قائلاً: "لا بأس عليه", وهذا يعكس لنا قدر الكرامة والتضحية الخفية.

الكرامات ليست مجرد هبات سهلة, نرى هنا أن الشيخ البوزيدي تحمل جهداً روحياً وبدنياً هائلاً أثناء عملية الشفاء الغيبي. شحوب وجهه وعرقه واضطرابه يشير إلى الطاقة الروحية الهائلة التي بذلها, وكأن جسده في مستغانم شعر بوطأة ما يفعله روحه في فرنسا, وقوله إن ولده مريض, يؤكد على رابطة الأبوة الروحية العميقة بين الشيخ ومريديه, حيث يشعر بآلامهم ويتكبد المشاق لأجلهم.

هذه القصة تُعد من أبلغ الأدلة على قدرة الله المطلقة على الشفاء والتصرف في الكون, على مقامات الأولياء الصالحين, الذين يُجري الله على أيديهم خوارق العادات إكرامًا لهم, على أهمية الإخلاص والعبودية في نيل هذه المقامات, فالشيخ لم يكن متكبراً بل كان "خاملاً متواضعاً", على الجهد الروحي المبذول من قبل الأولياء في خدمتهم للخلق, وأن الكرامات ليست سهلة المنال. إنها قصة تُقوِّي الإيمان وتُرسِّخ اليقين بأن لله عباداً إذا أرادوا شيئاً, كان لهم بإذن الله.

يقول الإمام الشافعي:

إنَّ لِلَّهِ عِباداً فُطَنا *** تَرَكوا الدُنيا وَخافوا الفِتَنا

نَظَروا فيها فَلَمّا عَلِموا *** أَنَّها لَيسَت لِحَيٍّ وَطَنا

جَعَلوها لُجَّةً وَاِتَّخَذوا *** صالِحَ الأَعمالِ فيها سُفُنا

الغوث وأمداده

هذه الحادثة تُقدم لمحة رائعة عن حكمة الشيخ البوزيدي وفراسته, وقدرته على الجمع بين الكرامة الإلهية والتربية الروحية وتطبيق الشريعة. تبرز القصة عدة جوانب مهمة: حفظ الله لأوليائه ومحبيهم, كشف الأسرار, والتوجيه الرباني للتوبة.

كان للشيخ البوزيدي فقير يُدعى الموفق ابن عمر, من قرية المحافيظ بولاية غليزان. كان الموفق يزور شيخه في مستغانم ويقضي عنده بعض الأيام في الزاوية بلا كلل أو ملل.

في إحدى الليالي, بينما كان ضيفًا في الزاوية, أمره الشيخ البوزيدي فجأة بالرجوع إلى أهله على الفور. عاد الموفق إلى قريته متسائلًا عن سبب هذا الأمر المفاجئ, فقد كان دائمًا ما يقضي الليالي مع شيخه دون أي يضيق بوجوده, وراودته أفكار كثيرة تفزعه, منها أنه قد فقد فرصة الصحبة الصالحة, أو أن الشيخ قد اطّلع على شقائه.

عندما وصل إلى بيته في الصباح, استقبلته زوجته وهي متأثرة وباكية, وروت له ما حدث في تلك الليلة من وقوع اللصوص الذين سرقوا بعض أغنامهم, وكيف أن اللصوص حاولوا الاعتداء عليها حين صرخت

تطلب النجدة والغوث, لكن رجلًا مسنًا تدخل وأبعد الحجر الذي كان أحد اللصوص ينوِي ضربها به, وأعاد المواشي إلى مكانها وحررها من اللصوص الذين كانوا من أهل القرية نفسها حيث تعرفت عليهم بسهولة. ففهم الموفق عندها سبب انزعاج الشيخ وأدرك حكمة أمره بالرجوع.

في الربيع التالي, أثناء سفر الشيخ البوزيدي إلى قرية المحافيظ واجتماع أهلها حوله, اشتكى الموفق من اللصوص الثلاثة. فسأل الشيخ اللصوص إذا كان الاتهام صحيحًا, فأنكروا الأمر وقالوا: "لا حجة له". فاستند الشيخ إلى الشريعة السمحاء وقال: "الحجة على من ادَّعى, واليمين على من أنكر". ثم سألهم أن يقسموا بالله أنهم أبرياء من الاتهام, ففعلوا. عندئذ كشف الشيخ لهم الحقيقة وقال: "توبوا إلى الله" ثم أشار إلى أحدهم قائلاً: "أنت من نزعت الحجر من يده, والتي كنت تريد أن تضرب بها زوجة سيدي الموفق, وقد أُخذتكم وكنتم لا تبصرون حتى طلع الفجر". ثم بيّن لهم أن اليمين الغموس, وهو القسم بالله كذبًا, أقبح من المعصية نفسها, لأنه يؤدي بصاحبه إلى الردة والكفر, فتُحبَط جميع أعماله وتصبح بلا قيمة. قال لهم: "فأي المخالفات أخطر؟ عصيان الله أم الكفر بالله؟ أتكفر بالله إن عصيت؟ لا! والمعصية تُكَفَّر بالتوبة. فاطلبوا العفو من أخيكم سيدي الموفق وتوبوا إلى الله, إنه غفور رحيم".

فاعترف الجميع بجرمهم وتابوا إلى الله, وطلبوا الصفح من الموفق, ومنذ ذلك الحين أخذوا طريق الخير والذكر, وعاشوا وماتوا على ذلك.

تبدأ الحادثة بكرامة من نوع خاص للشيخ البوزيدي, وهي كرامة حفظ ورعاية لأحد مريديه, الموفق ابن عمر. أمر الشيخ المفاجئ للموفق بالعودة إلى أهله على الفور, على الرغم من أن ذلك لم يكن من عادته, كان دليلاً على كشف الشيخ وعلمه الغيبي بما سيحدث.

قلق الموفق وتساؤلاته تُظهر طبيعة المريد الذي لا يُدرك دائمًا أبعاد أوامر شيخه, إلى أن وصل إلى بيته ليكتشف أن اللصوص قد اعتدوا على زوجته وحاولوا سرقة أغنامه, ثم تدخل رجل مسن لإنقاذ الموقف ما يؤكد أن أمر الشيخ كان إلهامًا وتدبيرًا ربانيًا لحماية الموفق وأهله.

المثير في الأمر هو أن الرجل المسن الذي تدخل كان الشيخ البوزيدي نفسه, بكرامة من كراماته, حيث يتجلى في أماكن متعددة في نفس الوقت لحفظ مريديه (وأهلهم وممتلكاتهم). هذا يوضح أن الأولياء ليسوا مجرد مرشدين روحيين, بل هم محفوفون برعاية الله وحفظه.

عندما قام الشيخ البوزيدي بسياحة إلى قرية المحافيظ, اشتكى الموفق من اللصوص. هنا أظهر الشيخ جانبًا آخر من حكمته: الالتزام بالشريعة قبل كشف الحقيقة.

عندما أنكر اللصوص, طبّق الشيخ القاعدة الشرعية: "الحجة على من ادَّعى, واليمين على من أنكر". هذا يرسّخ أهمية القضاء والعدل في الإسلام. لكن بعد أن أقسم اللصوص كذبًا, كشف الشيخ لهم الحقيقة بعبارة قاطعة: "توبوا إلى الله", ثم أشار إلى أحدهم ووصف تفاصيل ما فعله معهم.

هذا الكشف المفاجئ والدقيق لتفاصيل ما حدث يمثل كرامة الشيخ في كشف الأسرار, والتي لا يمكن أن يعلمها إلا الله ومن أطلعه عليها. هذا الكشف لم يكن مجرد إفحام, بل كان وسيلة للإقرار بالحقيقة.

الأهم من كشف الحقيقة هو الموعظة البليغة والتربية الروحية التي قدمها الشيخ للصوص. فقد بيّن لهم خطورة اليمين الغموس, وأنها أقبح من المعصية نفسها, لأنها قد تؤدي إلى الكفر وإحباط الأعمال. هذا التوضيح يُظهر فقه الشيخ وعلمه العميق, ليس فقط بالشرع, بل بحقائق الإيمان ومخاطر الكذب على الله. لم يكن هدفه معاقبة اللصوص أو فضحهم, بل هدايتهم وإنقاذهم من الهلاك.

شرح الشيخ أن المعصية قد تُكَفَّر بالتوبة, لكن اليمين الغموس لها تبعات أشد. ثم إن دعوته لهم لطلب العفو من الموفق والتوبة إلى الله, فإنها تجمع بين حق العبد وحق الله, لأن الجرم كان بحق الموفق, والتوبة لله.

تُختتم الحادثة بتحوُّل كبير في حياة اللصوص, حيث اعترفوا, وتابوا, وطلبوا الصفح, وأخذوا الطريق من الشيخ البوزيدي وعاشوا وماتوا ذاكرين لله. هذه النتيجة هي أبهى صور نجاح التربية الروحية للشيخ البوزيدي. لم تكن الكرامة مجرد عرض لقوة خارقة, بل كانت وسيلة لفتح القلوب للهداية والتغيير الجذري

في حياة أناس كانوا على طريق الشر. القصة بأكملها تؤكد أن أولياء الله هم مربُون ومصلحون, وأن الله يُجري على أيديهم ما يُمكنهم من تحقيق هذه الأهداف السامية.

دعوة بالقدوة وتصحيح للمفاهيم

هذه الحادثة تُقدم لمحة فريدة عن حكمة الشيخ البوزيدي وتعامله مع الجهل والعداء, وتُظهر كيف أن القدوة الحسنة والكشف يمكن أن يُغيران القلوب وتصحيح المفاهيم الخاطئة. هي قصة عن الصبر, الدعوة بالحيلة المشروعة, واكتشاف الحقيقة. ومن جهة أخرى, إن حسن الظَّن علامة على كمَالِ الإيمان, فلا يظُن بالمؤمنين خيرًا إلّا من كان منهم, وإنَّ سُوءَ الظنّ بالمسلمين يفتح بابا يدخل منه الشيطان, قال اللَّهُ تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ" (الحجرات: 12).

كان الشيخ البوزيدي في سياحة برفقة بوزيد ابن مولاي, المقدم في قرية عتبة. وعندما وصلا إلى إحدى القرى, لم يستقبلهما أهلها استقبالًا حسنًا, بل رمياهما بالحجارة وأطلقوا كلابهم لصدّهما عن الدخول. فابتعدا قليلاً وجلسا تحت شجرة.

مع غروب الشمس, عاد المقدم ابن مولاي إلى القرية وهو يحمل علبة حديدية ليستخدمها كطبل, ودخل يغني بصوت عالٍ قصيدة غزلية جذبت المستمعين. ظنّ أهل القرية أنه شيخ السماع, فتسابقوا للاقتراب منه. وضع المقدم العلبة بجانب كتفه, وبدأ يغني بأنغام محببة إليهم, فتجمّع حوله الناس. وعندما فرغ, قال له كبيرهم: "أرجوكم سامحونا على سوء استقبالكم. ظننا أنكم من الذين يأكلون أموال الناس باسم الدين, ولم نعرف أنك شيخ مغني". ثم طلبوا منه أن يبقى معهم لبعض الأيام, لأن لديهم حفلات زفاف وختان لأطفالهم. فأكرموه واستضافوه, ثم استأذن بعدها ليأخذ طعامًا لشيخه.

بعد الطعام, قصَّ عليه ابن مولاي القصة وطلب الإذن للعودة إلى القرية. فأجابه: "ارجع, فقد أقبلوا عليك", فرد عليه ابن مولاي: "حاشا لله, يا سيدي الشيخ, إنهم أقبلوا على علبة حديد فارغة".

عاد ابن مولاي إلى القرية وهو يغني الأغاني الغرامية البدوية, يستميل قلوب الناس, وعندما رأى أنه استحوذ على اهتمامهم, توقف وقال لهم: "أليس من العر عليكم أنكم طردتم شيخًا عارفًا بالله, من كبار المحققين

في الشريعة والحقيقة, والذي من تعلق به يحصل على سعادة الدارين, في حين قبلتم علبة فارغة ومغنيها فارغ؟ لقد استبدلتم, وأسفاً عليكم, العامر بالفارغ, والخير بالشر, والنور بالظلام, والسعادة بالشقاء, والحقيقة بالأوهام". حينها شعر أهل القرية بثقل ذنبهم, وطلبوا من المقدم أن يحضر لهم الشيخ. فأجابهم: "بالله لا أفعل, اذهبوا أنتم إليه واطلبوا العفو". ففعلوا ورجعوا به إلى قريتهم, وأصبحوا من الذين أنعم الله عليهم بالخير العظيم.

تتبدأ القصة بمشهد مؤلم ومُحبط وهو في استقبال معادٍ من قبل أهل القرية للشيخ البوزيدي ورفيقه بوزيد ابن مولاي. إن رمي الحجارة وإطلاق الكلاب يعكس جهلاً عميقًا وسوء ظن بأهل الله, اعتقادا منهم أنهم من تجار الدين.

هذا الموقف الأولي يُظهر تحديًا كبيرًا يواجه الصالحين في مجتمعات قد تفتقر إلى البصيرة. الشيخ البوزيدي, كعادته, لا يرُّد العدوان, بل يبتعد ويصبر تحت الشجرة, مُسلمًا أمره لله.

هنا يبرز دور بوزيد ابن مولاي كمريد ذكي ومُقدم صاحب فراسة. عودته إلى القرية مُتنكرًا في هيئة شيخ سماع أو مغني باستخدام علبة حديدية كطبل, كانت حيلة ذكية ومُحكمة. هذه الحيلة كشفت عن فهم عميق لنفسيات الناس. ابن مولاي أدرك أن هؤلاء الناس, الذين طردوا أهل العلم, قد ينجذبون إلى الترفيه والظاهر.

لم يفرض الطريقة المعتادة, بل استخدم وسيلة غير متوقعة لفتح القلوب, وهذا يدل على أن الدعوة إلى الله لا تقتصر على أسلوب واحد, فقبولهم للمقدم كمغني وسعادتهم به, بينما طردوا شيخًا عارفًا بالله, يُبرز مدى سوء تقديرهم للأمور وقيمتها, وقول كبيرهم أنه لم يكن يدري أنه "شيخ مغني" يُعد اعترافًا ضمنيًا بالجهل بالفرق بين أهل الله وأهل العبث.

عندما عاد ابن مولاي ليقص على الشيخ ما حدث, كانت إجابة الشيخ البوزيدي ذات دلالة عميقة. هذه الإجابة تُظهر فراسة الشيخ وعلمه بالنتيجة... كان يعلم أن الحيلة ستنجح وأن الناس سيقبلون على المقدم.

لم يُبدِ الشيخ اعتراضًا على وسيلة المقدم, بل أيَّدها ضمنيًا, مُدركًا أن الهدف هو إيصال الخير وتصحيح المفاهيم. رد ابن مولاي يُظهر تواضعه وفهمه العميق للموقف, ويؤكد على أن القبول الذي حظي به كان زائفًا ومبنيًا على سوء فهم.

الجزء الأهم هو كلمات ابن مولاي القوية التي وجهها لأهل القرية بعد أن استولى على قلوبهم. خطابه الذي كشف فيه حقيقة الشيخ البوزيدي ووبخهم على سوء فعلهم. فكلماته أوضحت الفرق الجوهري بين الخير الحقيقي (العارف بالله) والزيف (العلبة والمغني الفارغين). ففضح سوء اختيارهم, بكلام يُعَّد تلخيصًا بليغًا لتقييمهم الخاطئ.

حينها ندم أهل القرية وطلبوا من المقدم أن يحضر لهم الشيخ, رفض ذلك وطلب منهم أن يحضروه بأنفسهم, كان ذلك ضروريًا لتعليمهم درسًا في التواضع والتوبة الصادقة. لقد أراد أن يجعلهم يتحملون مسؤولية خطئهم ويبادروا بطلب المغفرة والعودة إلى الحق.

تنتهي القصة بعودة أهل القرية بالشيخ البوزيدي, وتحولهم إلى ذاكرين الله. هذه النهاية تُؤكد أن التوبة الصادقة تُفتح لها الأبواب, وأن الشيخ البوزيدي كان رحيمًا بهم وقبل توبتهم. إنها قصة تُظهر كيف أن الصبر والحكمة في التعامل مع الجهل يمكن أن تُفضي إلى هداية قلوب كاملة وتغيير حياة مجتمعات. هذه القصة ليست مجرد حكاية, بل هي درس في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة, والصبر على الأذى, وفهم نفسيات الناس, وكيف أن الله يُهيئ الأسباب لانتصار أوليائه وهداية عباده.

اختبار للشيخ البوزيدي

هذه القصة تُقدم مثالًا حيًا لكرامات الشيخ البوزيدي التي تُظهر قدرته على كشف الأسرار وتأييد الله له بالعناية الربانية في تلبية الحاجات الخارقة, وتُبرز عدة جوانب مهمة منها: المنافسة الروحية, اختبار الولي, وعظمة الاستجابة الإلهية.

دار حوار بين أحمد ابن إسماعيل وهو مريد ومقدم الشيخ البوزيدي, وصهره محمَّد العشعاشي التلمساني وهو مريد الشيخ محمَّد الهبري, حيث تبادل كل منهما الثناء الجميل على شيخهما. وكان أحمد ابن إسماعيل

شديد التعلق بالشيخ البوزيدي, فأثار في نفس محمَّد العشعاشي الرغبة في زيارة الشيخ والاطلاع عليه بنفسه, لا الاكتفاء بسماع الحديث عنه.

ففعلاً, جاء محمَّد العشعاشي إلى مستغانم برفقة شخصين وهما من كبار مقاديم الشيخ محمَّد الهبري. أثناء الطريق, تشاوروا وقال أحدهم: "زيارتنا هذه للشيخ البوزيدي من أجل معرفة حقيقة ولايته, فإذا كان من حقا من المشايخ الذين فتح الله عليهم ومن المقبولين عند الله والمؤيدين بنصره, فإنه سيأتينا عند الغداء بأكل خاص لكل واحد منا حسب أمنيته".

ولما وصلوا, استقبلهم أحمد ابن إسماعيل, وأحضرهم إلى بيت الشيخ البوزيدي الذي رحب بهم. ثم ذهب الشيخ البوزيدي إلى زوجته وقال لها: "هذا سيدي محمَّد العشعاشي ورفيقَيْه من تلمسان, هل لديك شيء لتقديمه لضيوفنا؟" فردت عليه بصوت جهوري سمعه الضيوف: "كيف تستدعي أهل تلمسان وليس في بيتك حتَّى بصلة واحدة؟"

فبينما هم جالسون والشيخ يحدثهم عن عجائب قدرة الله التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء, وكأنه يشير إليهم على ما أبطنوه في سر أنفسهم, فإذا بطارق على باب بيت الشيخ, فخرج وأتى بطبق فيه أكل للذي اشترطه وجعله بين يديه وقال: "هذا لك سيدي كما طلبت". وللمرة الثانية يطرق على بابه فيخرج الشيخ ويأتي بطبق فيه الطعام المطلوب كذلك وجعله بين يدي طالبه ويقول له: "هذا لك كما اشترطته علينا", ثم في المرة الثالثة كذلك, وبهذا تحقق ما طلبوه من أكل خاص, فاطمأنوا وعرفوا يقينًا أن الشيخ البوزيدي من الراسخين ومن المشايخ الكاملين المؤيدين بالعناية الربانية وطلبوا منه الدعاء لهم الصالح واستأذنوا في الانصراف فدعا لهم بالخير والصلاح ثم انصرفوا.

إن ثناء أحمد بن إسماعيل على شيخه البوزيدي هو بالطبع محفز إنساني طبيعي, والذي أيقظ فضول صهرِه, محمد العشعاشي التلمساني, مريد الشيخ محمد الهبري, مما دفع الأخير لزيارة الشيخ البوزيدي بهدف المعاينة. هذا الدافع, وإن بدا فضوليًا, إلا أنه يعكس سعيًا مشروعًا للتأكد من صدق دعاوى من تصدَّر للمشيخة والتربية. ولكن, تطور الأمر إلى ما يشبه الاختبار الصريح للشيخ. ففي الطريق, يتفق الرفقاء على علامة محددة للولاية الحقيقية: أن يأتي الشيخ بأكل خاص لكل واحد منهم حسب أمنيته. هذا الشرط

يُظهر شكّهم, ورغبتهم في برهان مادي ملموس للتأكد إن كان الشيخ من الأولياء المحققين, ولكن لم يكن الاختبار صعب على الشيخ البوزيدي, فالكشف وحده كفاه, وخدامه من الجان تولوا طهي الأكل الخاص في لمحة البصر.

يُظهر رد فعل زوجة الشيخ واقع الحال المادي الذي كان يعيشه الشيخ البوزيدي, وهو ما يُضيف إلى عظمة الكرامة التي حدثت. فغالبًا ما يُختبر الأولياء بالفقر أو بضيق ذات اليد, لتبرز قدرة الله على إكرامهم في أشد الظروف. فبينما كان يتحدث معهم, يُظهر الشيخ أنه كان على علم بسِر صدورهم وما اتفقوا عليه من اختبار. هذا العلم بالسرائر هو أحد علامات الأولياء التي يُكرمهم الله بها.

المحور الأهم في هذه القصة هو الاستجابة الفورية والخارقة لطلبهم. فعلى الرغم من خلو البيت من أبسط المؤن, فإذا بطارق على الباب, ويأتي الشيخ بثلاثة أطباق, كل طبق يحتوي على الطعام المطلوب تحديدًا من قِبل أحد الضيوف. هذه الاستجابة المعجزية تُعد برهانًا قاطعًا على التأييد الإلهي المطلق, فالله تعالى يُجري على يد أوليائه ما يُخرق العادة, ويُقدم لهم رزقًا من حيث لا يحتسبون, استجابةً لحاجاتهم أو لإظهار كرامتهم.

تحقق الشرط الذي وضعوه "فاطمأنوا وعرفوا يقينًا كمال ولاية الشيخ البوزيدي. هذا المشهد أزال كل شك لديهم وأثبت لهم أن الشيخ البوزيدي ليس مجرد عالم أو واعظ, بل هو ولي راسخ المقام, والنتيجة كانت إيمانًا راسخًا واعترافًا كاملاً من زوار تلمسان بولاية الشيخ البوزيدي, حيث طلبوا منه "الدعاء الصالح".

هذه القصة تُعزز الإيمان بقدرة الله على كشف السرائر وتلبية الحاجات بطرق غير متوقعة, وتُؤكد على أن أولياء الله يُكرمون بالكرامات الظاهرة التي تُميزهم وتُبرهن على صدق طريقهم وارتباطهم بالله تعالى.

التصرُّف وعودة الغائب

تُقدم هذه القصة المليئة بالدروس الروحية والإنسانية, والتي تُبرز جانبًا من كرامات الشيخ البوزيدي الجمالية والإكرامية والرعائية. القصة تروي مسيرة أحد مريديه الشباب من الإحباط إلى التميز, وكيف أن رعاية الله لأوليائه تتجاوز حدود الحياة والموت.

كان للشيخ البوزيدي مريد شاب من أقاربه يُدعى الطيِّب بن طه, وكان لا يزال في بداية طريقه نحو حفظ القرآن الكريم. وفي إحدى الليالي, أقيم حفل ديني كبير اجتمع فيه عدد من طلبة القرآن والمشايخ والعلماء, وبدأ الجميع في تلاوة القرآن جماعة. لكن الطيِّب, لعدم إتمامه حفظ القرآن, انسحب من الحلقة وجلس مع عامة الناس.

وهناك, تعرض لوابل من التوبيخ واللوم من بعض الحاضرين, فقالوا له: "أنت من نسب شريف ومن أحفاد سيدي أبو زيد, ومع ذلك لا تجتهد في حفظ كتاب الله مثل من هم في سنك! أنت كسول ولا أمل فيك!" فأثقلوا عليه بالعتاب حتى زاد حزنه وهمّه.

في صباح اليوم التالي, قال لوالدته إنه سيزور أخته المتزوجة التي تقيم في قرية بعيدة, وطلب منها شيئاً من الزاد ليهديها. فجمعت له طعاماً بسيطاً, لكنه غيّر وجهته تماماً, وسار نحو المغرب الأقصى, ليستقر بمدينة طنجة, حيث مكث سنوات طلباً للعلم, وانقطع خبره عن أهله.

بعد ثماني سنوات, أرسل برقية إلى أخيه محمَّد, وكان مقدم الشيخ البوزيدي في قرية سيدي الخطاب, يخبره أنه قد أكمل حفظ القرآن الكريم بالروايات السبع, وتفقه في الدين, ولم يبق له إلا العودة. وطلب منه المساعدة المالية للعودة إلى الوطن.

فذهب محمَّد بالبرقية إلى الشيخ البوزيدي, وقال له: "سأبيع فرسي لأرسل المال لأخي", لكن الشيخ أجابه بثقة: "لا تفعل! فإن سيدي الطيِّب سيعود به الله سالماً".

روى الطيّب فيما بعد أن ما حدث له في طنجة كان عجيباً, فقال: بينما أنا في المسجد الذي أطلب فيه العلم, قَوِيَ عزمي كأنما قوة تجذبني إلى زيارة ميناء مدينة طنجة, فبينما أنا أتجول فإذا بي أسمع صوتا يناديني: "يا الطيّب! يا الطيِّب!", فلما التفت رأيت رجلا متكئا على كرسي طويل بالزَّي التركي فسألني عن نسبي, فقلت: "من أبناء سيدي بوزيد", ثم سألني: "أتريد أن تذهب إلى مدينة وهران؟", فأجبته بالإيجاب. كدت لا أصدق هل أنا في يقظة أم في المنام فرد عليَّ: "إن السفينة قد ذهبت إلى مدينة وهران وستعود

يوم الأربعاء وستسافر عليها إلى وطنك إن شاه الله". فرجعت إلى المسجد مبتهجا مسرورا حامدا الله وشاكرا له على هذه الملاقاة بهذا الرجل الكريم.

عدت إلى الميناء مساء الثلاثاء ليلة الأربعاء, فوجدت نفس الرجل على هيئته فقال لي: "يا الطيِّب لقد وعدتك يوم الأربعاء, فما أعجلك؟", فقلت: "يا سيدي والله خشيت أن أتأخر عن الموعد وتذهب السفينة وأتخلف عنها". فأخذ بيدي وذهب بي إلى الخبَّاز واشترى لي خبزتن كبيرتين وذهب بي إلى تاجر آخر واشترى لي عسلا وزبدة وذهب بي إلى صانع الشاي فأمره ودفع له الأجرة مسبقا حتى قلت يكفي, وأعد لي مكانا أنام فيه. وفي صبيحة الأربعاء عند الضحى وجدت نفس الرجل يتفاوض مع قائد الباخرة فدفع له الثمن وقال له: "خذ هذا إلى مدينة وهران". فأخذت متاعي وصعدت على مدرج الباخرة وأنا مغمور بالفرحة, ومن شدتها لم ألتفت إلى السيد الكريم فأشكره على صنعه الجميل, فناداني: "يا الطيِّب نسبك نسبي!". ولكن رست بنا الباخرة في ميناء الغزوات وكنت أظنها وهران, فنزلت بها مسرعا نتيجة فرحتي بالوصول إلى وطني.

فلما وصل وقص القصة التي وقعت بينه وبين الذي تحمَّل عنه مصاريف السفر, قال محمَّد لأخيه الطيِّب: "ذاك الرجل الكريم هو سيدي الشيخ محمَّد البوزيدي, جزاه الله خيرا على هذا الصنيع الجميل, فحينما أردت أن أبيع الفرس وأبعث لك بثمنها, أمرني ألا أفعل قائلا: "الطيِّب سيعود به الله سالما!".

تبدأ القصة بمشهد مؤلم للشاب الطيِّب بن طه, الذي يُوبخ ويُلام بقسوة أمام الملأ لعدم إتمامه حفظ القرآن, مع تذكيره بنسبه الشريف. هذا العتاب, الذي كان بمثابة نقطة تحول مؤلمة لكنها حاسمة في حياة الطيِّب. فبدلاً من أن يستسلم للإحباط, قرر أن يُثبت لنفسه وللآخرين قدرته. هذا الموقف يُظهر كيف أن النقد اللاذع, وإن كان مؤذيًا, قد يُوقد شعلة الإرادة والعزيمة في النفوس الطموحة.

فقرار الطيِّب السفر لطلب العلم يعكس إرادة قوية ومثابرة عالية. هذه الهجرة, التي استمرت لثماني سنوات وانقطع فيها خبره عن أهله, تُظهر تفانيه في تحقيق هدفه, وعودته بعدما تحصيله للعلم هي شهادة على العزيمة والاجتهاد.

النقطة المحورية في القصة هي كرامة الشيخ البوزيدي, رغم أن الطيّب لم يدرك ذلك في حينه, فإن الرجل الكريم الذي قابله بالإكرام لم يكن سوى الشيخ محمد البوزيدي نفسه. هذه الكرامة تُبرز عدة جوانب منها: رعاية وحفظ الولي لأتباعه.

عندما أراد محمد (أخو الطيِّب) أن يبيع فرسه, منعه الشيخ البوزيدي من فعل ذلك وقال له, ليطمئن قلبه, أن الطيِّب سيعود الله به سالما. هذه الجملة تكشف عن يقين الشيخ المطلق في قدرة الله على الحفظ والرعاية.

هذه الكرامة هي إكرام وتيسير لطالب علم مجتهد صادق, فالله تعالى يُكرم عباده الصالحين بتيسير أمورهم بطرق لا يتوقعونها.

اللفتة الروحية في "يا الطيّب نسبك نسبي!". هذه الكلمة الأخيرة من الشيخ تؤكد للطيِّب أن العلاقة بينهما ليست مجرد رابطة روحية, بل هي عميقة برابطة النسب الشريف, وتُعزز بذلك الانتماء الروحي والطيني.

تُختتم القصة بإدراك الطيِّب وأخوه محمد لكرامة الشيخ البوزيدي, وهذا الإدراك يُولد شعورًا عميقًا بالامتنان لله تعالى وللشيخ. القصة تُعلمنا أن الاستجابة للدعاء, والتيسير في الأمور الصعبة, والعون في الأزمات قد تأتي من الله عبر أوليائه الصالحين, حتى بعد وفاتهم. إنها دعوة للتفكر في عظمة الله وقدرته, وفي مقامات الصالحين الذين خصَّهم الله برعايته وعنايته.

كرامة تيسير خروج الروح والتواضع في ذكرها

قال رضي الله عنه: "زرت يوما بعض المنتَسِبات في مرضها, فما استقر بي الجلوس إلا وقد فاضت نفسها" وكان يكرِّر ما حصل على يديه من عكس المراد.

تُقدم هذه الرواية لمحة عن كرامة ظاهرة من كرامات الشيخ البوزيدي, وهي قدرته على قبض الأرواح بإذن الله, أو على الأقل, أن تكون زيارته سببًا لانتهاء أجل المريض. الأهم من ذلك, تواضع الشيخ وعدم اعتزازه بهذه الكرامة, بل تكراره لها بصيغة تُشير إلى "عكس المراد".

هذه الواقعة تُشير بوضوح إلى كرامة خارقة للعادة, حضور الشيخ كان مرتبطًا بقضاء الله وقدره في انتهاء أجل تلك المنتسبة. وكأن زيارته كانت إشارة أو سببًا ظاهرًا لتوقيت قبض روحها. قد يُنظر إلى هذا كنوع من الوساطة الروحية, حيث يكون الولي الصالح سببًا في تيسير قبض الروح, أو أن حضوره يُعجل بإرادة الله في إتمام الأجل. مثل هذه الكرامات لا تظهر إلا على أيدي الأولياء الذين بلغوا درجة عالية من القرب من الله, حيث يقع التوافق بين إرادتهم الظاهرية والقدر الإلهي.

النقطة الأهم في هذا المقطع هي تكرار الشيخ لما حدث على يديه بصيغة "عكس المراد". هذا لا يعني أن الشيخ كان يُريد إبقاءها حية وفشلت رغبته, بل يُمكن فهمه بعدة أوجه تُبرز تواضعه الجم وعدم اعتزازه بالكرامة. العارفون لا يعتدون بكراماتهم, بل يرونها من محض فضل الله وتصرفه. تكرارها بصيغة "عكس المراد" هو نفي لأي فضل لنفسه أو تصرف مستقل منه. هو مجرد واسطة, والمشيئة لله وحده. ربما كان يُريد الشيخ (بمراده البشري الظاهر) أن يشفيها أو يُخفف عنها, لكن إرادة الله اقتضت قبض روحها. فقوله "عكس المراد" يُعيد الأمر إلى مراد الله الكلي, ويُؤكد على فناء إرادة العبد في إرادة الحق. فتكرار الكرامة بصيغة "عكس المراد" يُبعد عنه الأضواء ويُجنبه الغرور, الذي قد يصيب من تُظهر على يديه مثل هذه الأحوال, هو يُخفي الفضل لا يُظهره. كان هذا أيضاً درساً لمريديه في عدم التعلق بالكرامات, وعدم الاعتداد بها, وأن الغاية هي الله وليس المظاهر الخارقة, وأن على السالك أن يُسلم أمره لله في كل حال.

هذه الواقعة تُقدم صورة مركبة للشيخ البوزيدي, فإنها تدل على صدق ولايته وقربه من الله, ولا يرى لنفسه فضلاً حتى فيما يظهر على يديه من خوارق, ويُدرك خطورة الاعتداد بالنفس أو بالكرامات, فيعمل على كسرها حتى وهو يروي ماضيه.

تُعد هذه الحادثة, من بين أخريات, دليلاً آخر على الكمال الروحي للشيخ البوزيدي, حيث اجتمع فيه علو المقام بالكرامات الظاهرة مع منتهى التواضع وإنكار الذات, مُذكراً بأن كل فضل هو من الله, وأن العبد لا يملك لنفسه شيئاً.

عزة الأولياء وعقاب المتطاولين

هذا مثالًا بارزًا لكرامات الشيخ البوزيدي الجلالية, وهي تلك الكرامات التي تظهر في صورة انتقام إلهي أو عقاب يصيب من يُسيء إلى أولياء الله ويُبرز عدة جوانب مهمة, صبر الولي, استهزاء الجاهل, والعقاب الإلهي.

من كرامات الشيخ البوزيدي الجلالية -التي يظهر فيها جانب من عزة أولياء الله وكرامتهم- أنه كان ذات يوم في السوق, وبينما هو هناك, وقف أمامه رجل معروف بين الناس بأنه مقدم تابع لأحد مشايخ الزوايا التبركية, وكان يُكنّ للشيخ البوزيدي عداءً شديدًا. فما كان من هذا الرجل إلا أن خاطب الشيخ بكلام بذيء وقبيح, ثم تمادى في إساءته حتى بصق على وجه الشيخ البوزيدي أمام الناس جميعًا, في موقف من أشد المواقف إذلالًا واعتداءً.

لكن الشيخ البوزيدي, على عادته في التواضع والتسليم لأمر الله, لم يرد عليه بكلمة, بل اكتفى بأن مسح وجهه الشريف, ثم انصرف في هدوء, غير ملتفت إلى ما وقع عليه من الأذى. ولم تمضِ إلا ليلة واحدة, حتى أصيب هذا المعتدي بورم سرطاني في وجهه, وفي نفس الموضع الذي بصق فيه على وجه الشيخ, ولم يجد أي علاج يخفف عنه أو يشفيه, حتى مات مشوه الوجه, وقد نزل به عقاب الله تعالى أمام أعين الناس.

التعرض لأولياء الله هو اعتداءٌ على جناب الحقّ, ومن عادى لله وليًّا فقد تَوعّده الله بالحرب, كما ورد في الحديث القدسي, وهذا تهديد شديد لا يُستهان به, لم يأتي ذكر "حربٌ من الله" في الأحاديث إلا في هذا الشأن, أما في القرآن ففيما يخص التعامل بالربى.

هذا مثالًا آخر قويًا ومؤثرًا للكرامات الجلالية للشيخ البوزيدي, التي تُظهر عزة أولياء الله وكرامتهم, وكيف أن الله ينتقم ممن يسيء إليهم.

هذه الحادثة تُبرز ثلاثة جوانب رئيسية: الاعتداء الصارخ, الصبر والسكينة, والعقاب الإلهي المباشر.

يُصور الموقف تعرض الشيخ البوزيدي لأسوأ أنواع الإهانة والتطاول في وضح النهار وأمام الملأ. الرجل الذي كان "مقدمًا تابعًا لأحد مشايخ الزوايا التبركية" (مما قد يشير إلى حسد شخصي) لم يكتفِ بالكلام

البذيء والقبيح, بل بصق على وجه الشيخ البوزيدي. هذا الفعل ليس مجرد إساءة لفظية, بل هو ذروة الإذلال والاعتداء الجسدي والنفسي, ويعكس عداءً شديدًا وعمى بصيرة لدى المعتدي. أن يحدث هذا من شخص محسوب على "أهل الزوايا" يُظهر مدى الجهل الذي قد يصل إليه بعض المنتسبين للطرق الصوفية حين يغيب عنهم الأدب مع أولياء الله.

وعلى الرغم من فداحة الاعتداء, فإن رد فعل الشيخ البوزيدي كان مثالًا أعلى للصبر والتسليم لأمر الله. فهو لم يرد عليه بكلمة, بل مسح وجهه ثم انصرف. هذا السلوك يُعكس عدة حقائق عميقة منها أن الشيخ لم ينشغل بالإهانة أو الرغبة في الانتقام, وقلبه كان متصلًا بالله, ولا يرى في هذا المعتدي سوى أداة لمشيئة إلهية. وعلى الرغم من مكانته الروحية, لم يُظهر الشيخ أي غضب أو استعلاء, بل كان مثالًا للتواضع الذي لا يهتز أمام الإساءة. صمت الشيخ ليس ضعفًا, بل هو ترك الأمر لمالك الملك, فهو يدرك أن الله يتولى شؤون أوليائه.

تُختتم الحادثة بعقوبة إلهية سريعة ومباشرة, ليلة واحدة فقط تفصل بين الإهانة والعقوبة, فالورم ظهر تحديدًا في "نفس الموضع الذي بصق فيه", ما يجعله آية واضحة لا تقبل الشك. فهذه هي الكرامة الجلالية في أبهى صورها وأشدها عبرة.

موت الرجل "مشوه الوجه" و"عقاب الله تعالى أمام أعين الناس" يؤكد أن الحادثة كانت درسًا علنيًا لكل من يرى أو يسمع. هذا يُؤكد على عزة أولياء الله وكرامتهم, وأن من يُعادي وليًا لله فقد آذنه الله بالحرب, وأن الجزاء من جنس العمل, وأن لله جنودًا خفية تُنصف أوليائه وتقتص ممن ظلمهم. هي دعوة للتأدب مع أهل الله واحترامهم, فإن الله يغار عليهم.

وتجدر بنا الإشارة هنا أن العقاب أتى بنفس طبيعة الأذى, البصق يمكن أن يسبب بعض الأمراض مثل الإنفلونزا أو السُل, فكان مثالا للعدل الإلهي.

استهزاء الجاهل والعقاب الإلهي

مثالًا آخرا لكرامات الشيخ البوزيدي الجلالية, وهو أنه كان يمرّ أحيانًا عبر "السويقة" بحي تجديت, حيث يوجد أحد كبار التجار المعروفين. وكان هذا التاجر, في كل مرة يرى فيها الشيخ مارًا من أمام متجره, يرميه بالمفرقعات فجأة, على حين غفلة, دون أي مبرر سوى العبث والاستهزاء. وكانت تلك المفرقعات, ما إن تنفجر بجانب الشيخ, حتى يرفع صوته بذكر الله قائلًا: "الله", في موقف يدل على توكله وتسليمه, لا فزعًا ولا غضبًا, بل يقظة قلب وذكر لله في كل حال. لكن هذا التاجر, بدلاً من أن يعتبر أو يحترم, كان يسخر ويضحك ويقهقه استهزاءً بهذا المشهد, مستمتعًا برد فعل الشيخ البريء.

ورغم تكرار هذا الأذى, لم يرد عليه الشيخ بكلمة واحدة, ولم يوبّخه أو يدعو عليه, بل كان يسكت ويمضي في حال سبيله, تاركًا الأمر لله. وفي آخر مرة التي كرر فيها هذا التاجر فعلته في وضح النهار, احترق متجره ليلًا بالكامل, ولم يبقَ له من ماله شيء, حتى كانت خسارته عبرة لكل من سمع خبره.

يُظهر الشيخ البوزيدي في هذه الحادثة صبرًا عظيمًا واحتمالًا للأذى المتكرر. فبدلاً من أن يردّ على التاجر المستهزئ بالغضب أو الدعاء عليه, كان الشيخ يقابل الأذى بـذكر الله. هذا الفعل ليس تعبيرًا عن فزع أو ضعف, بل هو علامة على التوكل المطلق والتسليم, فحتى في لحظات المفاجأة والأذى, كان قلبه متيقظًا لذكر الله.

الشيخ لم يُعِير المسيء اهتمامًا يُذكر, بل ترك الأمر لله وتجاوز عن الإساءة. هذا الموقف يعكس سمو الأخلاق والعفو عند المقدرة. في المقابل, جَسَّد التاجر نموذجًا للجاهل المستهزئ, الذي يتجاوز حدود الأدب والاحترام. فعله هذا ليس مجرد "عبث واستهزاء", بل هو تعدٍ على حرمة أولياء الله واستهانته بهم, فرد فعله بالضحك والقهقهة يُظهر عمى البصيرة, وعدم فهم للرسالة التي يحملها الشيخ, فكثيرًا ما يقع الجاهل في فخ السخرية ممن هم أعلى منه مقامًا, لأنه لا يرى إلا الظاهر ولا يُدرك بواطن الأمور.

احتراق متجره بالكامل ليلًا وخسارته كل ماله, هذه هي الكرامة الجلالية التي تُظهر قدرة الله على الانتصار لأوليائه, وأن الإساءة إليهم ليست بالأمر الهين. فالله تعالى يغار على من يذكره ويُعرض عن غيره. هذه النهاية لم تكن مجرد صدفة, بل هي تدبير إلهي أراد أن يكون عبرة للجميع. هذا المشهد يُرسل رسالة واضحة

لكل من تسوّل له نفسه الاستهزاء أو إيذاء الصالحين, بأن لله جنودًا خفية, وأن عاقبة الظلم والإساءة وخيمة, وأن صبر الأولياء لا يعني ضعفهم, بل هو كظم لغيظهم وترك الأمر لمدبر الكون.

هذه العبرة تُعزز الإيمان بأن الصالحين محفوظون بتأييد إلهي, وأن الظلم لا يدوم, وأن العاقبة للمتقين.

الكرامات بعد وفاته

أما كرامات الشيخ البوزيدي بعد انتقاله فهي كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى, لم يصلنا سوى ما رواه الحاج أحمد بن إسماعيل, وكان من أحد كبار التجار بمدينة مستغانم, وكان له دكاكين ومخازن تجارية.

ففي إحدى الليالي, قدمت مجموعة من اللصوص قاصدة أحد مخازنه الكبرى المعروف بـ "المَطمر", وعند وصولهم وقفوا عند بابه وهموا بكسره, فإذا بالباب ينفتح فجأة على مصراعيه دون أي جهد منهم. وهنا, ظهرت أمامهم صورة محمَّد البوزيدي بهيئته المعروفة, وهيئته الجليلة الوقورة, تخاطبهم بعتاب رقيق: "ألا تتقون الله؟ أتخدعون أخاكم؟" وكررها ثلاث مرات. فأصابهم الحياء والخجل, وأغلقوا الباب بأنفسهم وانصرفوا دون أن يمسوا شيئًا.

وفي صباح اليوم التالي, أتى زعيم العصابة إلى أحمد بن إسماعيل, وبعد أن سلّم عليه, قال له: "أبشرك, إن أنت أمنتني", فقال له أحمد: "لك الأمان, تكلم", فردّ عليه الرجل: "نِعْم الشيخ شيخك. فقد ظهر لنا الليلة وهو يحرس متاعك كما كان يفعل في حياته. والله, ما إن رأيناه حتى تملكنا الحياء وتركنا كل شيء", فقال الحاج أحمد وهو متأثر بالحدث, مستشهدًا بالآية الكريمة: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ" (الأعراف: 43) ثم أقسم قائلاً: "ما شككت قطّ أن شيخي محمَّدي رباني".

تُعد هذه الكرامة مثالًا بارزًا على مفهوم الحفظ الإلهي الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان. فكرة أن الشيخ البوزيدي, بعد وفاته, يمكن أن يظهر ويحمي ممتلكات تلميذه, الذي له نصيب من الولاية, ليست مجرد حادثة عادية, بل هي تجلٍ لقدرة الله المطلقة في رعاية أوليائه. هذا الحضور الغيبي يرسخ القناعة بأن أعمال الصالحين وصلاحهم لا تنتهي بموتهم, بل قد يستمر أثرها بتدبير إلهي.

يمكننا أن نرى في هذا بأن الإيمان العميق بأولياء الله وصلاحهم يمنحان صاحبهما مكانة خاصة عند الله سبحانه وتعالى, بحيث يحمي عبده الصالح والمعتقد, ويحفظه هو وأهله ومتاعه, حتى بطرق خارقة للعادة. هذا الجانب يعزز اليقين بأن للروح قوة تأثير لا يمكن قياسها بالمقاييس المادية وحدها.

السلاح الأعظم يُظهر كيف أن القوة الأخلاقية والروحية يمكن أن تكون أشد تأثيرًا من أي قوة مادية. اللصوص الذين كانوا مقدمين على السرقة واجهوا هيبة شيخ وعتابه الرقيق الذي أوقع صدى عميق في ضمائرهم واستحضارًا لرقابة الله, وإحساسهم بالخجل والحياء إلى درجة إغلاقهم الباب بأنفسهم ومغادرتهم المكان دون أن يمسوا شيئًا, يُعد ذلك دليلًا قاطعًا على أن الوقار والأخلاق يمكن أن يخترقا النفوس الظالة ويُحييا فيها بصيصًا من الخير. هذا يحلمنا إلى القول إن التأثير الأقوى ليس بالترهيب والتنفير, بل بالكلمة الطيّبة, والهيبة الأخلاقية, وتذكير النفوس بمبادئها السامية.

تُجسد هذه الحادثة مفهوم الكرامة, وهو أمر خارق للعادة يجريه الله على يد عباده الصالحين, تكريمًا لهم وإظهارًا لفضلهم وقربهم من الله. عندما أقسم الحاج أحمد بأن شيخه "رباني", يعني أن شيخه كان مرتبطًا بالله ارتباطًا عميقًا, وأن الله هو الذي أدَّبه وهذَّبه وأعلى شأنه, حتى صارت الكرامات تظهر على يديه.

الإيمان بهذه الكرامات يعزز ثقة المؤمنين بأن الصالحين ليسوا مجرد أشخاص عابرين, بل هم ممن اختصهم الله برعايته الخاصة, وأن صلاحهم له أثر يتجاوز حدود حياتهم الدنيا.

هذه الحادثة نموذجًا فريدًا لعملية الهداية, فبدلًا من أن تتم الهداية عن طريق وعظ مباشر أو دعوة, جاءت عن طريق تجربة خارقة أثرت في اللصوص تأثيرا بيّنًا, فاعتراف زعيم العصابة يدل على أن الحدث قد هزَّ كيانهم وغيَّر نظرتهم, فتحولهم من محاولة السرقة إلى الإحساس بالخجل والعودة إلى صاحب المحَل لإعلامه بما حدث, يبرهن على أن الهداية يمكن أن تأتي من حيث لا ينتظر الإنسان.

استشهاد الحاج أحمد بالآية الكريمة يؤكد أن الهداية هي نعمة إلهية خالصة, وأن هذا التحوُّل ليس بجهد البشر وحدهم, بل بتوفيق من الله. هذه النقطة تُلهمنا بأن نؤمن دائمًا بإمكانية الهداية لكل نفس, مهما بدا الشر متأصلًا فيها, وأن أولياء الله لهم فضل في هداية البشر.

﴿ الفصل الثامن: وفاته, أثاره: 1909م / 1327هـ ﴾

المرض, الوصية, الرحيل

اشتدّ المرض بالشيخ البوزيدي حتى بدا على حاله ما يُنذر بقرب الأجل المحتوم, وظهرت عليه أمارات الرحيل عن الدنيا, إذ أُصيب بالفالج (الشلل النصفي) الذي لازمه طيلة أربع سنوات. وخلال تلك المدة, كان رضي الله عنه معقود اللسان عن الكلام لم يتكلم إلا بالإشارة, مع سلامة فهمه وإدراكه, وقد شلّ نصف جسده, فكان صابرًا محتسبًا راضيًا بقضاء الله وقدره.

كان للشيخ البوزيدي إلا ولدًا وحيدًا يُدعى مصطفى, كان أقرب إلى حال الجذب منه إلى الشعور والتكليف, لا يضبط له حال, غير مشكوك في ولايته, وكان أبوه يشهد له بذلك ويوصي أتباعه به وكان يحبه حبًا جمًّا, وكانت عيناه عند احتضاره لا تفارق النظر إليه, لما يعلمه من حاله وخشيته عليه من الضياع بعده. فلما علم الشيخ العلاوي بما يدور في خاطر شيخه قال له: "اكفنا أنت يا سيدي ما أهمنا من جهة الله تعالى, ونحن نكفيك من جهة سيدي مصطفى ما أهمك".

فانشرح وجه الشيخ البوزيدي, وظهرت عليه علامات الطمأنينة والرضا, كأن هذا الجواب قد سكن قلبه وأراح فؤاده, وبهذه السكينة أسلم الروح إلى بارئها بعد حياة مليئة بالعلم والجهاد الروحي والتربية والدعوة إلى الله. كان ذلك يوم الإثنين 25 أكتوبر 1909 ميلادي, 10 شوال 1327 هجري, فتقاطرت الوفود من كل مكان, من الفقراء والمحبين, ومن العلماء والمشايخ, للتعزية وحضور الجنازة. وقد صلى عليه الشيخ العلاوي بنفسه, ودفن الشيخ البوزيدي في زاويته بتجديت, بمستغانم, والتي غدت مقامًا للزيارة والتبرك والدعاء.

لم يخلّف الشيخ البوزيدي من المؤلفات إلا ديوانه الشعري, وترك كتيبًا صغيرًا دوّن فيه سيرة حياته, استعمله الشيخ العلاوي في كتابة حياة شيخه والمعروف بـ "برهان الخصوصية في الطريق البوزيدية".

إن تفاصيل وفاته, تقدم لمحات عميقة ومؤثرة عن الأيام الأخيرة في حياة الشيخ محمد البوزيدي, كاشفة عن جوانب إنسانية وروحانية عظيمة في شخصيته, ومبرزة العلاقة الفريدة بين الشيخ وتلميذه, الشيخ العلاوي, ودورها في تثبيت الطمأنينة في قلب الشيخ عند الاحتضار.

تُظهر السنوات الأربع التي قضاها الشيخ البوزيدي مصابًا بمرض الشلل قدرًا هائلًا من الصبر والاحتساب والرضا بقضاء الله وقدره. هذا الابتلاء الجسدي الشديد يُبرز قوة إيمانه وتجلده ويُقدم مثالًا حيًا على كيفية تحويل المحنة إلى منزلة عليا من التسليم والرضا. إن ثباته هذا في وجه الألم والمرض يُرسّخ مكانته كقدوة في التعامل مع الابتلاءات.

القلق الأبوي العميق للشيخ البوزيدي على مصير ولده الوحيد مصطفى, الذي كان شبه مجذوب, والذي انعكست عليه نظراته الأخيرة, يكشف لنا عن محبة وشفقة وخشية على مصير ابنه.

هنا يأتي دور الشيخ العلاوي, تلميذ الشيخ البوزيدي الوفي, الذي أدرك بحدسه وبصيرته ما يدور في خاطر شيخه. لم تكن كلماته لشيخه مجرد كلمات, بل كانت تعبيرًا عن الوفاء, والفهم العميق لحاله, والثقة المطلقة في قدرته على تحمل هذه الأمانة, وتبادل الوعود. هذا الوعد المتبادل يعكس عمق العلاقة الروحية بين المعلم وتلميذه, وكيف أن هذه الثقة المتبادلة يمكن أن تُحدث فارقًا حتى في لحظات الوداع الأخيرة.

وأخيرا وللإشارة, نرى كيف أن العمل الصالح يعود على صاحبه بالمثل, ففضل الشيخ البوزيدي على أولاد شيخه محمد بن قدور عاد عليه بالخير بتحمل الشيخ العلاوي رعاية أهله وابنه مصطفى.

كان رد الشيخ العلاوي بمثابة البلسم الشافي لقلب الشيخ البوزيدي, فانشرح وجه الشيخ البوزيدي, وظهرت عليه علامات الطمأنينة والرضا, كأن هذا الجواب قد سكن قلبه وأراح فؤاده, وبهذه السكينة أسلم الروح إلى بارئها. هذه اللحظة تُلخص جمال التسليم وراحة البال التي تأتي من اطمئنان الروح على من يخلفها وعلى الأمانات التي تتركها. إنها لحظة روحية عميقة, تُظهر أن السلام الداخلي يمكن أن يكون المفتاح للخروج من الدنيا بسكينة ورضا.

ما يؤكد على استمرارية تأثير الشيخ الروحي حتى بعد وفاته, هو إرثه الحقيقي في الأثر الروحي والتربوي الذي تركه في نفوس تلاميذه ومحبيه, وفي مواقفه التي بقيت تُروى بعد وفاته. يُشار أيضًا إلى أن إرثه المكتوب كان شبه معدوم, ديوان شعري وكتيب صغير روى فيه قصة حياته المباركة.

الأثر الميمون بعد وفاته

إن استمرارية الأثر الروحي والمعنوي للشيخ البوزيدي لا يزال قائمًا, ولا يزال ذكره حيًّا, ومواقفه وكلماته تتناقلها القلوب قبل الصحف, وهو مثال للعارف الذي لا يُنسى, لأنه غرس نوره في النفوس, وأروى القلوب بكؤوس المحبة والمعرفة, وترك رجالا لله ذاكرين.

رفض الشيخ البوزيدي أن يوصي لأحد بالخلافة, مؤكدًا أن إنابة السر ليس من حقه, بل إن تدبيره مرتبط بإرادة الله تعالى, فهو صاحب الأمر يمنحه لمن يشاء, أما هو فكان مجرد مستخلف لفترة حياته وملتزمًا بأمانة حفظ هذا السر.

النقطة المحورية هنا في رفض الشيخ البوزيدي أن يوصي لأحد بالخلافة, ينبي عن فهم عميق لمشيئة الله في الأمور الروحية ويُوضح جوهر مفهوم الخلافة الفاعلة في الطريق, وهذا يدل على التواضع الجم للشيخ البوزيدي لأنه لا يدَّعي لنفسه حق الوصاية على السر الإلهي, وكان له وعي بالحدود حيث كان مدركا أن الأسرار الروحية والمقامات لا تُورّث أو تُنقل بقرار بشري, بل بإذن إلهي وتبشير نبوي. فكانت ثقته المطلقة في التدبير الإلهي, الذي أقام هذا الطريق, فهو من سيختار ويُهيئ من يحمل رايته من بعده.

انتقلت الطريقة البوزيدية الدرقاوية إلى خليفته الشيخ أحمد العلاوي الذي حمل الراية, ففتح الله عليه بالفتح المبين حتى صارت الطريقة تعرف باسمه لتصير علاوية وغطت أنوارها بلاد المغرب والمشرق. "هذا التحول من "البوزيدية" إلى "العلاوية" لا يعني انفصالًا أو نكرانًا للأصل, بل هو امتداد وتوسّع. الشيخ العلاوي, بفضله وعلمه وهمته, لم يحافظ على الإرث الروحي لشيخه فحسب, بل عمل على نشر هذا النور وتوسيعه ليشمل مناطق أبعد, وهذا هو المعنى الحقيقي للخلافة الروحية: حفظ الأصل مع التجديد والانتشار. هذا الامتداد يُعد شهادة على قوة المنهج التربوي للشيخ البوزيدي, وعلى كفاءة تلميذه في حمل

الأمانة ونشر العلم بظاهره وباطنه. رحمهما الله تعالى وغفر لهما ورضي عنهما وقدس روحهما الطاهرة الشريفة.

الفهرس